يوميات امرأة مشعة

رواية

بألم

نعمات البحيرى

لاول مرة منذ بداية برنامج نادي القراء في يناير 2001 تم الاتفاق مع الاستاذة نعمات البحيري على توزيع روايتها الكترونيا لجميع اعضاء منتدى الكتاب العربي في ديسمبر 2007 وهذا ضمن ملف كتاب الشهر.

https:www.arabworldbooks.com

ArabWorldBooks.com

اهـــــداء

إلى كل الذين امتدت أياديهم البيضاء لنجدتى من بين مخالب الوحش.....ليته لا يعود..
أحبائى وأصدقائى رفقاء الحلم والهم الواحد

نعمات البحيري

ArabWorldBooks.com

لكافكا مقولة شهيرة لا أنساها :

« ينبغي عدم السخرية من البطل وهـو يتـرنح علـى خشـبة المسـرح بعـد أن أصـيب بجـرح قاتـل. إننـا نمضـي سـنوات من حياتنا ونحن نرقص من الألم».

ولمحمود درويش كلمة..

في كل كتابة ابداعية نصر صغير على الموت، وهزيمة صغرى أمام إغواء الحياة التي تقول للشاعر: هذا لا يكفي، فما زالت القصيدة ناقصة! ..مثل هـذا المحـارب لا تليـق بـه السكينة.

ArabWorldBooks.com

مفتتح ....

يحدث دائما أن يمرض الانسان وتتعدد الاسباب ربما للفقر أو للقهر أو لـ "شغل" الجينات وعوامل الوراثة فى جسده دون أجساد الآخرين حاملين نفس الجين، وربما لمجمل الضغوط النفسية التى تمارس عليه وخاصة حين يكون كاتبا تتراوح أمامه الحياة بين ما هو كائن وما يجب أن يكون بين كبت وحرية وفقر ورغد وديكتاتورية وديمقراطية...وبالأخص حين تكون كاتبة, امرأة فى مجتمع يتراجع عنه نوافذ وأبواب العقل فتنسحب الشمس وكذلك القمر وكل منجزات سنوات المد الثورى والتغيير والتطوير، تعيش سمات مجتمع يتراجع عن كل منجزه الحضارى لحساب حفنة أوهام. لكن الثابت دائما أن الشروط الانسانية التى تتوافر لبشر فيعيشون أصحاء هى نفسها التى تنعدم أو ترتبك أو تضطرب فيقع آخرون تحت وطأة المرض.

ArabWorldBooks.com

فى محاولة منى لتجاوز الأزمة كان يجب أن أخرج إلى منطقة أقل تورطا مع المرض. ساعدنى ذلك على النظر بحياد هادئ الى الصورة كاملة..أن تقف خارج المشهد وتتأمل جيدا يعنى أنك لا تنظر فقط بعيون سائح ولكن بعيون إنسان وأحيانا بعيون فيلسوف.

هذا ما حدث معى وأنا أتحرك فى ردهات مركز الأورام بمعهد ناصر لأتذكر مسرحية "كاليجولا" لألبير كامى والإمبراطور الرومانى الذى يندفع محاولا أن ينقذ البشرية من شرورها ومن مصيرها. ثم تموت أخته التي كان يحبها حبا غير عادى، فينتبه فجأة إلى أن البشر يموتون وهم غير سعداء ولأسباب تافهة للغاية. هذا ما رأيته تحديدا مع مراعاة الفروق بين العيون الرومانية والعيون المصرية..حين داهمنى الحدث بترسانته المرعبة، ناهيك عما ترسخ فى الوعى الشعبى والموروث عن المرض وتداعياته ودرجات وحشيته والنتائج المحتملة والنهايات المحتومة.

كان يجب أن أفتعل مهارة ممثل عبقرى، بخروجه الاضطرارى من شخصيته ليتقمص شخصية أخرى.. بالتأكيد كان تدخل صديقاتي وأصدقائى منذ اللحظات الأولى هو الذى قلب المسألة من حالة الذعر والكدر والحزن الشديد إلى كل هذا مع درجة لا بأس بها من الأمان والونسة والحياد والبساطة وليس التبسيط، كانت أحيانا تصل لبث النكتة ومشاعر المرح والطمأنينة فى الآخرين، ربما لأننى سمعت جيدا لكلمات أحد الأصدقاء وهو يؤكد لى أن 60% من العلاج هو الحالة المعنوية. هى التى تقوى الجهاز المناعى وتمنحه قدرة هائلة على المقاومة، وكان الطريق للمقاومة بالابداع..

ArabWorldBooks.com

أمـــى...

سأثبت لها الليلة أننى كنت أنام ملء جفونى طوال العشرين عاما الماضية، على الرغم من أنها تعلم علم اليقين أن المرتبة الأولى قصيرة والمرتبة الثانية أقصر والفارق بينهما وبين الجدار ملأته بالخيال.

حدث هذا حين اشتريت لنفسى سريرا يقترب من الأرض لتفادى الوقوع من الأحلام، ولم يكن معى ما يكفى لشراء مرتبة باتساع السرير فأعارتنى أمى مرتبة قطن تصلح لسرير صغير، وأعارتنى ابنة خالتى مرتبة أخرى لسرير أصغر والفارق بين المرتبتين والجدار ملأته بكتب مملة ورتيبة للكتاب الرسميين فى العالم كله..كانت تأتينى هدايا من السفارات والملحقات والمراكز الثقافية وكذلك سددت الفارق بين المرتبتين والجدار بقرارات

ArabWorldBooks.com

الجزاءات والحرمان وقرارات النقل من جراء التمرد على مستنقع الوظيفة المملة وكذلك قرارات الفصل والأجازات بدون أجر للولادة أو للسفر إلى بلاد النفط والذين خرجوا على المعاش أومن آصيبوا بعاهات والذين ماتوا أو فقدوا أو جنوا أو اكتأبوا أثناء الوظيفة. ملأتها أيضا برزم التذاكر الطبية للموظفين والموظفات خلال غزو أمراض مثل السكر والضغط والسرطان وأمراض الكبد والفشل الكلوى وغيرها انتشرت بشكل مبالغ فيه فى الفترة الأخيرة...

كم الاشعات الذى تعاطيته حتى الآن يجعلنى امرأة مشعة تماما.. وللآن لا أدرى مقدار الخطورة التى قد أصيب بها الآخرين..

ترى هل كان النوم يأتينى حقا، أم أنه شخير أمى فى الغرفة المجاورة، .. لذا قررت الانتقام منها ـ حبا ـ فى كتابة رواية عن الربع الناقص بين المرتبتين والجدار الذى ملأته بحكايات فى حضرة سيدنا الألم مع أصدقائى وأحبائى وزملائى وكل الذين عرفتهم تحت ضوء خاص يوم زلزال أكتوبر2004 ، ربما يمكننى أن أنام وأحلم جيدا وأتفادى الوقوع من الأحلام مرة ثانية...

ArabWorldBooks.com

تدخل فنى.....

بدت هالة البدرى منزعجة لما تدركه من نظرات الجراح الذى راح يفتش فى ملامحهما هـى وسـهام بيـومى عـن جملـة مناسـبة يفصـح بهـا عـن حقيقـة الموقـف بـأدنى خسارة .. هكذا أدركت كنه المسألة بحواس خفية غامضة هـى دائمـا بوصـلتى الصـادقة الصـدوق ناحيـة الأشـياء والمواقف والبشر وأنا أتذكر قول "برنارد شو" عن الجراحين "أنهم ....جزارون مهذبون"..

أخذت هالة وسهام الطبيب على جانب.. وسـرى فـى نفسـى نـزوع غريـب مثـل صـقر يحـافظ علـى حقـه فـى الطيران ولو للدقائق الأخيرة من عمره.

انقضضت على الجراح بأسئلة بعد أن أفصحت له أننـى امرأة مؤمنة وأؤمن جيدا بالقدر، فضلا عن أن لى محـاولات غير بائسة فـى كتابـة الـدراما وأفهـم علـى نحـو مـا دراما الحياة..

ArabWorldBooks.com

نظرالجراح لهالة وسهام ثم لى وقد بدا أنه وقع بين مخالب قطة شرسة فراح يتحدث بشروط السوق ولغته السائدة:

ـ من الآخر ؟..

ـ من الآخر ..

نظر طويلا ثم قال كل شيء.

أخبرنى أنه سوف يضخم من حجم المسألة ليحمس المسئولين فى عملى على الاسراع لتقديم تسهيلات سريعة بغية إجراء تحاليل وفحوصات لازمة.. أعرف انه لم يضخم من الكارثة وأن حجمها الكامن يفصح عن نفسه.. أدرك أن ما كتبه الجراح على الورق هو الحقيقة غير زائدة..

خفضت كل من هالة البدرى وسهام بيومى رأسيهما وصمتتا فقلت لهما

ـ هيا نبدأ الرحلة فلست خائفة..

لم يكن هذا صحيحا على الاطلاق ..

كتب الطبيب قائمة طويلة استوعبت ورقتين من دفتره الهزيل ..تحاليل وآشعات كان لابد أن تمر بدرجات متفاوتة من بيروقراطية الجهاز الادارى الذى التصق مثل السرطان بكل المستشفيات والمؤسسات العلاجية.

المستشفى صرح فخيم عظيم يذكرك بالمولات الكبيرة التى انتشرت هذه الأيام.. متاهة كبيرة تشبه بيت جحا لكن بشروط العصر، الأبنية أشبه بتصميمات المركبات الفضائية،أتنقل فى طرقاتها وممراتها وتساندنى هالة البدرى وسهام بيومى، لجمع كم هائل من التوقيعات على استمارات التحاليل والآشعات قبل بداية الرحلة الصعبة.

ArabWorldBooks.com

ثـم بـدأت الرحلـة ربمـا الأصـعب مـن الجراحـة ذاتهـا بتحليل الدم بكل أنواعه.. صورة دم كاملة ..وظائف كلـى .. وظائف كبد وآشعات على الصدر والـبطن والحـوض ومسـح ذرى على العظام خشية أن يكون المرض قد أرسـل بعـض رسائله الحميمة هنا أو هناك. كذلك رسم القلب وموجـات صوتية وفوق صـوتية والـرنين المغناطيسـى علـى الجسـد كله..

بـدوت لنفسـى وكـأننى فـى حالـة تأهيـل جسـدى ونفسى لامتطاء مركبة فضائية .

بعض الآشـعات أشـبه بـآلات التعـذيب فـى معسـكرات النازيـة، يـدرك المـريض أنهـا فقـط مـن أجـل تـدمير جهـازه السمعى والعصبى. كنت أدرك على نحو وآخر أن ثمة قوى غبية ترغب فى تدمير كائن رقيق.. مرهف الحس.. فلـيس هذا زمن الحساسين..

ومع مرارة الرحلـة التـى بـدت كمسـيرة مـتهم أخـذوه "كعب دائر".. يلفون به على جهات أمنية عديدة للتأكد من أنه لـيس مطلوبـا علـى ذمـة قضـايا أخـرى، كـان لابـد مـن التأكد من براءة بقية أعضاء جسمى مـن نفـس المـرض أو أية أمراض أخرى.

فـى حجـرة واسـعة وبـاردة للغايـة، بـدا انتظـار الـدور المقدس الذى سيحسم البراءة من الإدانة، أحد الضروريات التى أرست قواعدها المستشفى الضخم. فلـيس هنـاك فروقا طبقية أو اجتماعية أو ثقافيـة بـين المرضـى. أو ربمـا هذا ما يبدو على السطح ..يحـدد الـدور بأسـبقية الحضـور ولا يمكن تجاوز المسألة تحت وهم الاحساس بأننى كاتبة أو أننى أعد سلفا من النخبة..

ابتسمت وطفر سؤال خبيث بمثـل خبـث الـورم ..مـن يجزم أنه حتى داخل النخبة والصفوة ليست هناك طبقات.

ArabWorldBooks.com

كما أن ديمقراطية المرض وهم كبير. كل أنواع المرض تنحاز للأغنياء فتتجنبهم وتتحاشاهم.

تعاملت هالة البدرى مع المسألة بإنسانية شديدة وأنا مستلقية بعينين غائمتى الرؤية فى قاعة الانتظار، والتليفزيون حليف متواطئ مع كل أشكال القرف. تنبهت إلى وجه جميل يشبه على نحو ما وجه أمى التى أخفيت عنها المسألة برمتها، خوفا عليها من فزع لا تستطيع إزاءه إلا الانهيار، يدعمه ما ترسب فى الوعى الشعبى عن هذا المرض تحديدا. مازال هناك من يدعوه بالخبيث وهناك من يقول "المرض الوحش"، أو "اللى ما يتسماش" وكأن مجرد ذكر اسمه يستعدى ـ حتما ـ شراسته.

كانت المرأة ترافق ابنتها الجميلة بنت السابعة عشرة والتى داهمتها سيارة ونتج عنها كيس ماء فوق الظهر.. أتت لعمل اشعة رنين مغناطيسى. الأم فلاحة مصرية تشم فى ثيابها رائحة طين الأرض، وبقايا ماجور العجين وعشة دجاج فوق سطح الدار المسقف بأقراص "الجلة" اليابسة.

جاءت تشكو لهالة البدرى بصوت متهشم..

ـ تتصورى يا بنتى الشاى بجنيه .. الله لا يكسبهم ولا يربحهم..

هالة الدافئة جدا أعطت المرأة نقودا، فتمنعت لكنها سرعان ما ذابت فى حنان هالة ..

سألتنى وأنا ما زلت أستجدى قدرا من الراحة على مقعدين متلاصقين،وكنا من طلعة النهار نمر على الأقسام لندمغ الأوراق ونأخذ أسعار كل تحليل أو اشعة لتضمن المستشفى أن ثمة غطاءً ماديا لكل هذا.

ـ تشربى شاى؟

ـ يا ريت..

منحت هالة المرأة جنيهين آخرين ..

بلعت المرأة ريقها ونظرت إلىّ بحنان بالغ وقالت..

ArabWorldBooks.com

ـ.. انشاء الله سليمة.

لا أدرى ما الذى جعلنى أتشبث بكلمات ونظرات المرأة ..سارت خطوات وغابت ثم جاءت ترثى لعاملة البوفية الباكية والرهيفة مثل قلب الخسة والتى خصم لها صاحب البوفيه ثلاثين جنيها, سيعدها عجزا فى نهاية اليوم....

ـ يا حبة عين أمها .. بت زى البدر .. اللى يدهولها باليمين ياخده بالشمال..
رفضت هالة أن تستعيد النقود، فجاءت لى بالجنيهات الأربع فى يدها.. طمأنتها عيناى فى حلة تسول ابتسامة أمى الغائبة الحاضرة فى عيون وصوت المرأة.

مللت الانتظار وعيونى ـ كلما راحت أو أتت ـ ترتطم بمريض فى أقصى درجات المرض أو أدناها، وبين الاثنتين مساحات متراوحة من الهزيمة والانسحاب والتراجع والوهن. شعرت بكثير من السأم والضجر فأخبرت هالة بأننى سأحضر شيئا من السيارة.

نزلت وسرت فى ردهات مركز الأورام متجاهلة أننى أنا "نعمات البحيرى" بلحمها ودمها، زاعمة لنفسى أننى شخص آخر خارج دائرة الورم والخبث، يرى الأطفال المرضى بوجوههم "المحمرة احمرارا مصفرا ، ورؤوسهم الخالية من الشعر من آثار العلاج الكيماوى.
كنت أراهم مثل كائنات قادمة من عالم آخر. حتى الممرضات جامدات الوجوه، قصيرات، صغيرات الحجم بعيون مصمتة . بدون لى مثل أورام صغيرة تسير على الأرض..
كنت أرغب فى تجاوزأشباح المرض فى زوايا وأركان المركز. على الأرض والمقاعد وفى الحدائق التى انتشرت فى شكل جمالى حول المركز.

ArabWorldBooks.com

بـدا الإسـفلت ينـزل ويصـعد وينحنـى وينحـدر ويطـول ويقصـر وسـاقاى علـى الأرض شـديدتا النحـول.. كنـت قـد ركنت سيارتى الصغيرة فـى "بـاركينج" المستشـفى منـذ الصباح الباكر.. سيارة صغيرة بيضاء ، أسـميتها "فلـة بنـت خوخة اللى جت بعد دوخة" اشتريتها وأنا أنحت فى صخر عنيـد لتحسـين شـروط الحيـاة، فـى واقـع لا يقـل خبثـا وشراسة عن المرض. وما أن بدأت أجنى ثمار كدى وتعبى حتى فاجأنى المرض..

أحاول أن أمتص خبرة الألم من عيون المرضى وذويهـم وأطياف الخوف والفزع، رافضـة تسـول الشـفقة والتعـاطف، تلك التى تصـلنى كمشـاعر مـن بلاسـتيك لا حـرارة فيهـا، يمارسها الناس على بعضهم فى مثل هذه المواقـف مثـل جمـل اعتراضـية، تقـال علـى مضـض ثـم يواصـلون الحيـاة البليدة الجافـة..والأيام مثـل حبـات رمـاد، تفركهـا بأصـابعك لتطير فى أعقاب أزمة مثل هذه...

فتحـت السـيارة وجلسـت قلـيلا إلـى "فلـة" وحضـنت عجلة القيادة وقبلت التابلوه وقلت لها..

ـ خلى بالك منى يا فلة..

كان لسان حالها الصامت ..يقول

ـ.. أكيد حنعديها.. ياما عدينا أزمات مع بعض..

وكان لسان حالى يجزم لها بأننى لست امرأة ترى أن كل دورها فـى الحيـاة يختـزل فـى "قطعـة لحـم" يلتهمهـا الرجـل، حتـى أعيـد انتـاج الغضـب علـى أنوثـة منقوصـة لحسـاب واقـع غبـى وشـرس لـم يغفـر لـى أننـى امـرأة موهوبة حتى النخاع.

جـاءت شـوقية الكـردى وصـديقتها السـورية وجلسـنا على النجيل نتحدث فى السياسة والفن والأدب وضحكات شوقية تملأ سماء المستشفى.

ـ والله ح تبقى كويس يا جميل....

ArabWorldBooks.com

ابتسامات شوقية وكلماتها تحرك فى نفسى بقايا أمل. غير أمل صاحبتها التى بدت بيضاء ونحيلة ونظراتها محشوة بانكسارات ومكسرات عمرها وأحلامها..

كيس الجوافة الذى اشترته سهام بيومى أمس.نسيته فى السيارة . منحت البنت وأمها شيئا منه... وجهها الجميل وعيناها الصافيتان ترسم فى الأفق وجه أمى التى أشعر تجاهها بالذنب لأننى لم أخبرها حتى الآن..

دلتنى المرأة على الطريق.. بدا أن لها باعا طويلا مع الألم.. حكت لى الحكاية كاملة وهى تقول وكأنها تقدم اعتذارا..

ـ أصل أنا م الفلاحين ..

علمت أنها من قرية فى أعماق القناطر فضحكت وقلت لها..

ـ أنا من شبين القناطر.. من تل التمايمة....

ظلت تطيب خاطرى طول الوقت وتنتظرنى على كل باب وكأنها نسيت أن لها بنتا تدعى "أزهار" تنتظرها.. هى الأخرى تنتظر دورها مع الحضور الغفير أمام قسم آشعة الرنين المغناطيسى..

بدا المنتظرون يتابعون جهاز التليفزيون الذى بدا مثل آلة تخدير تسرق العيون والعقول والوقت والتركيز على الألم والمرض وتمنح الصبر والخدر وطول البال ..

بالصدفة المحضة كان اليوم الخامس من أكتوبر والتليفزيون يبث أفلاما وبرامج تتحدث عن النصر المبين ووجوه المسئولين يراوغون الألم والأمل فى عيون المرضى وذويهم وهم يتحدثون فى جرأة وثقة..

قلت لهالة البدرى..

ـ بحب مسئولين الحكومة.. دمهم زى الشربات.

يطالعون الناس فى مثل هذه المناسبات بوجوه ذات ملامح حادة وعيون متقدة بالكذب، يتحدثون عن النصر والأمل بأصوات جهورة.. أو عن أمجاد غابرة ويوهمون الناس بأنها مازالت قائمة..

ابتسمت هالة وقالت ..

ـ انت مجرمة..

ابتسمت ومددت ساقىّ أريحهما من تعب اليوم واللف على أقسام التحليل والآشعات لابراء ذمة الجسد..

فجأة وبدون مقدمات سألتنى هالة..

ـ أخبار سليم إيه؟

ـ ولا أعرف أى اخبار من 18سنة..

ـ معقولة..

ـ ويعنى إيه المعقول فى كل اللى حصلهم واللى بيحصلنا وبيحصلى.

ـ انت لسة بتحبيه.. بدليل انك ما تجوزتيش من بعده.. وكمان عمرى ماسمعتك بتتكلمى عنه بشكل سىء..

ـ مش مسألة حب.. لكنه شئت أم أبيت هو جزء من تاريخى..

صمتت هالة فى أعقاب مناداة الممرضة على أحد الأسماء وتحرك صاحب الاسم على كرسى متحرك متوجها ناحية غرفة الرنين المعناطيسى..

عدد شكات إبر التحاليل ووجوه الممرضات ورجال الأمن الجالسين ينظمون دخول المرضى حفرت فى مخيلتى حفرة عميقة.... حتى وجه فتاة رسم القلب غير المحجبة وأنا أسألها ..

ـ انت مسيحية..؟

ـ لأ..

ـ أمال موش محجبة ليه زى الباقى..

ابتسمت ولم ترد.. ربما خشيت أن يكون " كلام فى السياسة.."

ArabWorldBooks.com

سألتها وهى تدهن منطقة الصدر والقلب بمادة تشبه "الجيل" ثم تثبت دوائر معدنية صغيرة موصولة بأسلاك تمتد إلى جهاز مريع ..

ـ وحياتك تشوفى قلبى سعة كام راجل..

قالت هالة وهى تضحك...

ـ ولا راجل..انت شريرة..

قالت الممرضة وهى تكتم ضحكاتها..

ـ لو سمحتى ..اسكتى عشان الجهاز اشتغل..

كنت قد اكتشفت مبكرا أن قلوب النساء ليست حكرا مباحا للرجال, لكن حب الحياة والكتابة أجمل كثيرا مما جعلنى أنكر كل الرجال وأثق فقط فى ضرورة تحققى كإنسانة وككاتبة. وكما يقول سعدى يوسف "أن تكونَ فناناً يعني أن تكون مسؤولاً ، بذاتكَ أوّلاً ، عن تناولِ الحياةِ كما تُتناوَلُ فاكهةً ذاتَ مذاقٍ ".

شغل هذا حيزا كبيرا من حياتى، ولم يكن هناك متسعا لأى رجل فى غير حدود الصداقة والود البسيط.

بعد انفصالى عن سليم خشيت أن يدخل حياتى رجل تدهشنى معه البدايات البراقة والأغنيات والأحلام والأوهام كما حدث من قبل، ثم أكتشف عند أول محك أنه جامد أو ضعيف أو خامل أو "سى السيد" مثل أبى فأفر وأجرى ربما لآخر الدنيا.

جنبتنى آشعتى التى تخترق عقول البشر مغبة الدخول فى تجارب عديدة تستهلك طاقتى الإبداعية وتحولنى إلى امرأة "مخرمة" من كل جانب مثل منخل..هشمتها التجارب القاسية بحثا عن وهم اسمه الحب..

انتهت الممرضة من عمل رسم القلب، ووضعت التقرير فى ظرف من الورق المقوى الشاحب وأعطته

لهالة..أخذته منها وفتحته ونظرت فيه.. مجرد منحنيات صاعدة وهابطة لا تفصح عن شىء ..لكنه يعنى الكثير لأهل الخبرة.

قابلتنى "نانسى"جارتى الفلسطينية .. تقول عنها الجارات "مقضياها عرفى" تخرج من زيجة إلى ثانية ومنها إلى أخرى وهكذا استهلكت عددا لا بأس به من الرجال. كنت اتعاطف مع فرط إحساسها بالغربة لكننى اكتشفت أن أغلب الجيران يكرهونها، ربما لأنها صارت تتدخل حتى فى الشجرة التى يزرعونها أمام بيوتهم، وهى تزعم أنها زوجة لمسئول أمنى كبير..

حدثتنى أكثر من مرة عن حكاية المسئول الأمنى وأنها تستخدم اسمه فى ردهات وغرف وطرقات الأجهزة الرسمية التى تتردد عليها، فتلبى احتياجاتها فى التو واللحظة. أخبرتنى فى البداية أنها كانت تعمل فى الامم المتحدة ولديها خبرة فى الزراعة والثقافة الغذائية. جذبتنى مرة لتناول فنجان قهوة فى بيتها القريب من بيتى وفتنتنى طريقتها فى تنسيق بيتها الذى بدا مثل متحف لا يلمس مقتنياته بشر.

هى الآن زوجة لطبيب عربى يتاجر فى الأدوية والآلات الطبية والسلاح والأعشاب الطبية ويأتيها مرة كل شهر ليستقر معها عدة أيام، تلبس البيجاما الحرير الفوشيا وهو يلبس الروب دى شامبر الازرق ويعيشا أحلى حياة، ربما لا تتحقق لزوجته أم أولاده. هكذا أفضت لى من أول لقاء..

تركتها تحكى وأنا مبهورة بذلك الوهج الذى يتدفق من نظرات عينيها.. وفيما بعد عرفت من الجارات أن مسألة الزواج العرفى هذه تتكرر كثيرا. بعدها رأيت بنفسى أن الرجال يتغيرون والروب دى شامبر ثابت لا يتغير .. وكذلك البيجامة الحرير الفوشيا .. كنت أراها مع الواحد منهم فى الشرفة يتناولان الافطار ولا تنسى أن تلقى بنظراتها وصرخاتها لعدد من أطفال العمارات المجاورة جاءوا ليلعبوا فى الحديقة.

ArabWorldBooks.com

شكت لى أكثر من مرة من بائع الجرائد القصير النحيل مثل قرد، أنه يصر أن يدخل بالعجلة بين الممرات الضيقة للحديقة. كثيرا ما كنت استيقظ على شجارها معه وهو لا يتوانى عن مقابلتها سباب بآخر ،مبديا كراهيته لبلدها ومن يأتى منها...

الممر الطويل مزدحم بأهل المرضى أمام ماكينة التصوير وهالة غطست بينهم لتصور خطاب العملية الجراحية... ووجه جارتى الجميلة يبحث فى اليافطات المعلقة هنا وهناك ..ثم رأيتها بعد قليل تتزعم مظاهرة من مرضى السرطان الفلسطينيين أمام باب مدير المستشفى..

ArabWorldBooks.com

تموجات بنفسجية

بعد طابور طويل بين حاملى المرض وعناصر اليأس والإذعان جاء دورى.. أشعة الرنين المغناطيسى أصعب أنواع الأشعات.

نادت الممرضة الحامل اسمى بنصف لسانها فارتج جسدى وقاومت نظرات الشفقة فى عينى هالة البدرى والمرأة أم أزهار وبقية المنتظرين. وفى غرفة صغيرة أقل من متر فى متر، أدخلتنى الممرضة.. كانت حاجتى لتجاوز ضيق المكان والأفق والصدر كبيرة للغاية..

نظرت للسقف الواطىء وبياض الطلاء والأرفف التى وضع عليها ملفات كثيرة بأسماء مرضى فأدركت أن حاجتى للصراخ باتت وشيكة.

نزعت ثيابى الفوقية وحمالة صدرى التى بدت مثل شىء مضحك فى حالة من العبث التى أتحرك بين ردهاتها متوخية الحيطة والحذر. كان علىّ ارتداء "روب" أخضر يشبه روب الأطباء محاك من مادة تشبه ورق الكلينكس المخرم والسميك بعض الشىء. نظرت لصدرى

ArabWorldBooks.com

فى المرآة باعتباره المتهم الأول وبقية الأعضاء من حوله تسعى سعيا حثيثا لإثبات براءتها . ضيق المكان أجج سعة الخيال، فتخيلت أننى أتنفس خارجه ربما فى فضاء أوسع، كما سمح لهوس الذكريات أن يمخر عباب البحور القديمة ويأتى بقلاع الدهشة..

منذ جئت إلى الدنيا وأنا أشعر بوطأة ضيقها على رأسى ونفسى. لا أشعر بالراحة إلا فى الحدائق والغيطان والصحراء والأماكن ذات الأفق الممتد.. كم الاشعات الذى تعاطيته حتى الآن يجعلنى امرأة مشعة تماما.. وللآن لا أدرى مقدار الخطورة التى قد أصيب بها الآخرين..طرأت لى فكرة الذهاب إلى كل أعدائى وأولهم أبى الذى لم يمنحنى بهجة حتى ولو منقوصة.. نشر عناصر الرعب والفزع والقسوة فى سمائنا مثل دخان أو مثل غاز مسموم جعلنى أتهيب كل شىء.. البشر والمواقف والعلاقات والأشياء.. تخلصت منه فى مقابل أجمل سنين عمرى. ذلك الوقت الذى كانت حيويتى فى احتواء البشر ما تزال بخيرها ..

غرزت الممرضة "واصلة" إبرة رفيعة فى وريد ظهر كفي اليسرى وثبتتها ببلاستر.
أخبرتنى بأن الفنى سوف يحقننى بصبغة مثل محلول الملح. كان يجب أن أسألها عن درجة الألم. لم ترد.

فى غرفة الرنين دخلت آلة كبيرة تشبه الغسالات الضخمة فى مراكز التنظيف والكى الآلى التى انتشرت فى أغلب الأحياء فى الفترة الأخيرة.. بدا الجهاز مثل وحش كبير يخرج منه لسانا معدنيا بمقدوره أن يحمل انسان .. به فتحتان تتسع للثديين.. وتتغير قطع غياره حسب العضو المعتل فى الجسم .

ArabWorldBooks.com

استلقيت على بطنى وأمرتنى الممرضة أن أدخل ثديىّ فى الفتحتين.. وداهمنى احساس أن البتر سيحدث فى التو واللحظة واللسان المعدنى يمتد ليسحبنى شيئا فشيئا إلى فم الوحش الأسطورى. وحش عالى التقنية فسلمت أمرى لله..

عندما هيأتنى الممرضة تماما جاء فنى الاشعة.. شاب وسيم وسامة الدمى البلاستيكية وأبيض بياض الشمع وبارد الروح ومصمت العينين والفم. له حضور يفح ثقلا جليديا وأكد علىّ بصوت معدنى أنه لكى نخرج بنتيجة سليمة مائة فى المائة هناك بعض المحظورات منها الحركة والسعال والكلام أو ابداء أية علامات ضجر. فقط على أن أخذ أنفاسا عميقة وأكررها. حمدت الله وشكرته أن ثمة شيئا مسموح حده الأقصى التنفس.

حدثت نفسى بضرورة تجاوز المهزلة ببعض الألاعيب النفسية مثل إعمال الخيال وإدماجه فى عالم آخر، بعيد كل البعد عن مكان التجربة. هكذا تمرست فى التحايل على كل الصعاب التى واجهتها فى حياتى..

تماما مثل الألعاب السحرية التى كنت أواجه بها قوانين أبى الصارمة التى كانت تبدو للآخرين قوانين غاية فى الغرابة مثل منعه لدخول أى من أقربائى الرجال إلى بيتنا، فأدخلنا فى عزلة صارمة، بينما هو يدخل كل بيوت قريباته ويستدعى بعضهن الغاضبات والأرامل والمطلقات إلى بيتنا ثم يشرع فى مغازلتهن على مرأى ومسمع الجميع.

ذات مرة جاءتنا عمتى فضيلة وهى ابنة عمة أبى وناديها مجازا بعمتى . امرأة جميلة إلى حد مبالغ فيه، لها من الدلال والأنوثة ما يكفى بنات الأرض ويفيض. ومن ذا الذى لم يخر أمامها ساجدا. جاءته غاضبة من زوجها

ArabWorldBooks.com

وترغب فى الطلاق، فراح يشجعها على الطلاق وقبول الزواج منه تحت زعم أن الرجل له مثنى وثلاث ورباع بينما كان لعمتى "فضيلة" أهواء أخرى تتجاوز أبى وغيره.

رأيته بعينى ذات مرة وأنا أدخل لهما الشاى، يأمرنى بغلق الباب خلفى..وكانت أمى تبدو وكأنها ليست من هذا البلد.. "شارية" دماغها كما تقول..
يومها ضحكت وهى تعد الغداء وقالت :
ـ اللى خدته أم شوشة تاخده المنقوشة.

والحق يقال أن عمتى "فضيلة" الجميلة كانت أكثر النساء نقشا بما تحمله الكلمة من احتمالات الجمال و"الزركشة والنعنشة والنغنشة ".. الغريب أنها أنجبت بنات وأولادا لا يمتون لجمالها بصلة..
كنت أحب أقاربى وأزورهم أو أقابلهم فى الهواء الطلق بعيدا عن البيوت الخانقة..

داخلنى احساس عال بضرورة تجاوز رعب التجربة بكاملها وعلىّ بعد أن أفرغ من صور الألبوم البرتقالى أن أنتقى منطقة ظل محايدة. غير إننى أبدا لم أستطع اعتماد ذلك طول الوقت..

كانت تعليمات فنى الاشعة الجليدى الطابع والنزعة، والذى له عيون جامدة تشبه عيون الجلادين وممارسى التعذيب فى السجون. تذكرت أنه سمح لى بالتنفس، فقررت زيادة ألاعيب الخيال. فالمسألة قد تطول.. استنفرت طاقتى الذهنية فغرقت فى عتمة العيون المغمضة وتصالحت مع ما يحدث باعتبار أن النهاية الحتمية أن يبرأ بقية أعضاء الجسد من التهم الموجهة إليها. لكن الخيال لم يستطع تجاهل الأصوات التى أسمعها فتحرك وتداعى وتجلى..

بـدت جوقـة مـن الأصـوات المزعجـة المنتقـاة بعنايـة شديدة مزيج مـن أصـوات لـدق هـون وخـبط أغطيـة حلـل ببعضها وخبطات مفتاح عامل أنابيب الغـاز بمفتـاح الأنابيـب عليهـا ورنـين وكلاكسـات سـيارات منفـردة ثـم مجتمعـة تتعالى شيئا فشيئا مثـل سـيمفونية شرسـة كلهـا تفتـت فى أذنى قدرتى على السمع والاحتمال.

بدا الخيال عاجزا عن احياء لحظات ماتت وضـاعت فـى غياهب الذكرى، فرحت أجتر مـن جديـد صـورى فـى ألبـوم الصور البرتقالى وهو أحب الالبومات إلى قلبى..

ثم الألبوم الأخضر ..

صورتى وأنا فى المدرسـة وأنا مع أخوتى وماما..وعمى عبد الرحمن جارنا وزوجته .. ذلك الرجـل الـذى كنـت أحبـه ربما أكثر من أبى.. تذكرت أنه أبدا ليسـت لأبى صورة معنا ولم تجمعنا به صور ولا أى شـىء حتى الغداء. كان يتغـدى وحيدا وتقف أمى "زنهار" حتى يفرغ من طعامه ومـا علينـا إلا أن ننقض على مـا تبقـى منـه مـن طعـام.. وبختـك يـابو بخيت..

لم تكن أمى تفعل ذلك حبا لأبى بـل تنفيـذا لتعليمـات جدتى التى كانت تصرخ دائما..

ـ الراجل ياكل لوحدة والعيال بعدين..

غيـر أن "بعـدين" هـذه لـم تكـن تحمـل أى ضـمانات كافية..

أحسـنت جـدتى تأسـيس صـحة أبـى وتكفلـت أمـى ـ مرغمة ـ بالبـاقى.. وخرجنـا جميعـا للحيـاة بصـحة معتلـة، أمراض فقر وسوء تغذية وخصاء ذهنى ولعثمة وعاهات لأن أمى كانـت ترغـب فـى أن تثبـت بعـد فشـلها فـى زيجتهـا الأولى أنها صالحة للزواج مرة أخرى، وأنهـا قـادرة علـى أن تعمر ببيت رجل. يبدو أن عمارها هذا كلفنا الكثير.

ArabWorldBooks.com

بعد حقنة الصبغة التى مررها الفنى سحبنى اللسان إلى داخل الآلة الضخمة التى تشبه وأنا فى داخلها كبسولة فضاء، فقد أحسست على نحو وآخر أننى أطير أو أسبح فى فضاء غير مرئى، وأننى غير قادرة على اختراق تعليمات "وسيم الغبراء" فنى الآشعة..وأنا مغمضة العينين كاتمة الأنفاس على الرغم من أنه سمح بذلك جزئيا.

بدت تحركات صغيرة تمنحنى إيحاءً بأننى فعلا داخل كبسولة فضاء وأنا أمر داخلها بفضاءات مجهولة الهوية ، ثم مر الوقت تتصاعد فيه أصوات التموجات التى تصدر لى إيحاءً بأن أشياءً كثيرة تتكسر أو تتهشم أو تتشظى، تبعتها بشكل مباشر أصوات احترت فى تحديد كنهها لكن طمأننى قليلا أننى تعرفت على أصوات عالية تشبه تلك الأصوات التى تنبعث أثناء دق الكفتة ووشيش وابور الجاز وحركة مبيض النحاس والدق على الأسقف والجدران، وطبل أجوف صارم وصوت "شنيور" يخترق العقول والجماجم وأصوات بلدوزورات، وصوت قطار بضائع.

قررت استدعاء احدى ألعابى السحرية وتذكرت كيف قاومت عقبة سخيفة كادت تدمر ما تبقى من اعصابى حين حاصرنى شعور طاغ بالإغتراب لما رأيت مدينة الشروق الجميلة التى سكنتها منذ اكثر من عشرة سنوات وكانت خالية تماما وجلست أتشوق إلى مقدم البشر فإذا بهم ياتون صعايدة وفلاحون هاجروا الى البلاد العربية وقدموا بقدرة على شراء شقق المدينة فقاموا بترييف المدينة فضلا عن أنهم وبعد وقت وسط فوضى الغابة راحوا يعتدون على المساحات الخضراء امام العمارات ببناء توسيعات تدخل إلى شققهم مساحات شاسعة، فسدوا علىّ الأفق الذى كنت اراه ممتدا للسماء، والتهم الاسمنت المسلح والطوب والجير والزلط مساحة من الخضرة زرعتها بنفسى ذات يوم حين قدمت المدينة، فرحت أغلق على نفسى شيش النوافذ والشرفات وقد صرت مرئية للأطفال والرجال والنساء مثل

علامة استفهام وحيدة، فقررت أن أهاجر المدينة التى تم ترييفها إلى مدينة جديدة أخرى، ربما تمر خمس سنوات قبل أن يداهمها غزو مماثل. جئت مدينة السادس من أكتوبر حيث المساحات الخضراء والأفق المفتوح الفضفاض على السماء والشمس والقمر وأبنية ذات نسق جميل. أحببت شقتى حبا غير عادى فملأت علىّ الثقوب التى قد نخرها سوس إحساسى المقيم بالإغتراب..

مازال من شأن تلك الجوقة شديدة القسوة والضراوة إحداث تدمير منظم لجهازى السمعى والعصبى. مضى أكثر من ساعة والوقت يركب ورقة قذرة يحركها هواء خامل، وتحكمها عوامل الصدفة والسخف والغباء وكل عناصر الشر التى تنتهجها الطبيعة الجامدة والبليدة والعنيدة تنهض مع جوقة الاصوات الشرسة...

تخيلت أننى ربما أكون خطأً فى إحدى آلات التعذيب بأحد السجون وأننى متهمة بشىء أجهل كنهه تماما، وأن بعضا من أصدقائى هم عناصر نشطة فى جهاز استخبارى يسعى لاجبارى على الاعتراف بشىء ما..

والله العظيم ح اعترف ...

أعترف أن الحلم وحده كان سبيلى الوحيد لتجاوز كل عثراتى..

كما أعترف أننى تمردت على أبى حين حدد مستوى تعليمى بدبلوم تجارة تعس وبائس فتجرأت وتجاسرت وذاكرت لأحصل على بكالوريوس تجارة حتى أتفادى الزواج من ابن ابن عمه. ."..الطينة من الطينة واللتة من العجينة".. كما تقول أمى..

أعترف أيضا أننى ثقفت نفسى بنفسى فى الوقت الذى كان بيتنا لا يعرف من الكتب غير بطاقة التموين، وان مجمل الظروف التى وضعنى فيها أبى ودعمته أقدار متواطئة ، كان من شأنها أن تجعل منى ـ على أقصى

ArabWorldBooks.com

تقدير ـ خادمة فى منزل احدى نزوات أبى، وهذا دون ادنى مبالغة أعلى تقدير يمكن أن تقدمه الآلهة لفتاة مقهورة، وبريئة وطيبة دون إضافات أخرى..

أعترف أيضا أننى لم أرغب فى الزواج بدون حب فأحببت وتزوجت رجلا أحبنى وسافرت من أجله لأعيش فى بلده، وإذا بى أشعر أننى ذهبت بقدمى وكل إرادتى للحياة فى بلاد تتنفس قهرا وقمعا و حرا وحربا وحروب طوائف وملل ونحل وتنويعات أخرى.....

أعترف أيضا أننى كنت نبيلة ونبية مع أولاد زوجى حين توسل إلىّ ألا أجعل ابنته أمام خطيبها وأهله ابنة لامرأة مطلقة ...

سأعترف أننى كنت صادقة قولا وفعلا حد البلاهة ..

سأعترف أننى أحببت أصدقائى ربما أكثر من نفسى ولما لم أستطع أن أكمل الطريق الذين ظنوا انهم رسموه جيدا اختفيت وذهبت بعيدا ربما لآخر الدنيا..

سأعترف أننى كنت أتمنى أن أصبح أما لكننى لم أسع لذلك ربما خشية من مصير مظلم ، فلم أرغب فى الزواج ثانية وصرت أكتب للأطفال حتى صار أطفال أخوتى وأطفال أصدقائى وأطفال الدنيا هم أطفالى..

أعترف أننى أبدا لم أندم على أننى لم أساهم فى الحفاظ على النوع من اجل أبدية البشرية حين رأيت الواقع يلتهم براءة الاطفال ونقاوتهم فى مجتمعات العالم الثالث..

سأعترف أن كتبى هى أيضا أطفالى الحقيقيون..وأننى أرغب فى الحياة فقط من أجلهم.. هناك عدد من المخطوطات.. ـ مجموعتيى قصصيتين وثلاث روايات ـ أطفال قصر يجب رعايتهم حتى يبلغوا سن الرشد..

ArabWorldBooks.com

سأعترف أننى حاولت التمرد على وظيفتى التقليدية كمحاسبة فى شركة الكهرباء والعمل كصحفية فى أى جريدة أو مجلة، لم يكن إلا استبدال سجن بسجن بشروط أفضل.. كل منهما يحولنى إلى ترس فى آلة لإنتاج القهر....

سأعترف أننى لم أكره أبى كل الكراهية فقد التمست له الكثير من العذر حين حدقت النظر فى وجه جدتى الفظة القاسية ذات صباح وهى تحكى عن انها أرضعته لبن غوازى ولبن أثداء بنات الغجر.

سأعترف أن متع الدنيا تم اختزالها فى متعة الكتابة والقراءة ومشاهدة السينما لأعيش حيوات كثيرة ربما تعويضا عن فكرة الخلود التى كانت تؤرقنى منذ طفولتى..

خشيت فى غمرة الاعترافات وفى محاولة للتمرد على رعب الآلة الضخمة أن يحدث خطأ فيعاد الفحص. خشيت أيضا أن تتفكك حين سمعت صوت حطام وكسر زجاج ومسامير تتفكك..

قالت هالة فيما بعد
ـ كويس انك اتحملتى للآخر.. .

بعدها شعرت بأنى متعبة ومكدودة ومقهورة بفعل عوامل عديدة ناصر غبية..
لم نسلم من أوامر الجراح..أحد الأشكال بيروقراطية الطبع والطابع، حين طالبنا بالذهاب إلى "خمسة أ" فى الطابق الخامس. ذكرنى ذلك بقصة الكاتب الايطالى ديبونزاتى " الطابق السابع" التى لا أنساها.. صعدنا فى مصعد من حديد.. قذر وقبيح ممتلىء بمقاعد للمرضى الذين يتحركون على عجلات أربع.

ArabWorldBooks.com

بدا الطابق لمرضى الأورام من كل نوع.. بؤس الحظ والطالع.. كائنات بائسة مذعنة للمرض واليأس والاستسلام. وممرضات هن أصلا يشبهن أورام صغيرة تتحرك على أقدام..

قلت لهالة..

ـ أنا تعبت أرجوكى نمشى من هنا..

ولم ترد حتى لحقتنا الممرضة التى تجلس على الريسبشن بأن شخصا ما يريدنى على التليفون..

...

ArabWorldBooks.com

الطابق الخامس

فى اليوم المحدد لدخول المستشفى فاجأنى صاحب الشقة بأنه يرغب فى بيعها وأنا أولى من غيرى بها.. غامت بى الدنيا لكننى تماسكت وطالبته أن يمهلنى شهرا .. حاول أن يوهمنى بأنه معرض للسجن ويرغب فى بيع الشقة.. لم يكن قد مر عام على تاجيرى للشقة فى سياق تعاقد هو شريعة المتعاقدين لمدة ثلاث سنوات..

جاءت سهام بيومى ووفاء حلمى وجعلتهما تحدثان أمى بالتليفون لتؤكدا صدق كذبتى عليها بأننى سأنشغل عنها لعدة أيام بأحد المؤتمرات وأن المؤتمر يرشحنا ككاتبات لمؤتمر آخر فى الاسكندرية. صدقت أمى ونزلت بحقيبتى تحملها عنى سهام بيومى وتساندنى وفاء حلمى .

ArabWorldBooks.com

كان الطريق هادئا على غير العادة مما سمح لى بدرجات من الشرود أيقظنى منها صوت سهام وهى تقول لى

ـ ايه يا نعنع.. والله بكرة ح تروق وتحلى..

قالت وفاء :

ـ والله أنا قلبى حاسس خير يا نعنع..

طريق محور أكتوبر من أجمل الطرق الجديدة .. أستشعر فيه بجمال الريف الأوربى الذى رأيته فى النمسا وألمانيا وسويسرا ..ليس مجرد طريق.. جبال ومنحدرات ومساحات خضراء ممتدة أو صحراوية متباعدة ومتقاربة تفجر بداخلى الرغبة الدائمة للتأمل واستنشاق كم هائل من الأوكسجين..

لأول مرة أشعر بعدم الرغبة فى رؤية كورنيش النيل فأغمضت عينى وأسندت رأسى ثم انتفضت لأنظر إلى الدنيا التى ربما أغيب عنها أثناء العملية. تراجعت ورحت افتح ملء عينىّ لأعب من مشهد النيل والأشجار الوارفة وخطوات الطامحين والسائرين وقصص الحب المترامية على ضفافه..

دخلنا المستشفى والتوجس من مشهد الرجال والنساء الذين ينتظرون جثة ميت أمام مسجد المستشفى جعلنى أنظر إلى السماء وأتابع سرب طيور هاربة من مناخ الموت والألم على أنغام أغنية لعلى الحجار

خلاص خرجنا م الأزمة وترجع على دارك مجبورين..

ياللى سريرك من فضة النور ف كفك يتوضى..

قالت وفاء حلمى : شفتى يا نعنع .. الفال بيقول ايه..

حجزونى فى غرفة فى الطابق الرابع.. دفعت الفرق من أجل غرفة "لوحدى"، بلا رفيقة ورم أخرى تلاحقنى آهاتها لتدمر ما تبقى من جهازى العصبى.

ArabWorldBooks.com

ظللت ليوم كامل ثم نوهوا لنقلى بعد إجراء الجراحة للطابق الخامس.. ابتسمت وقلت لهم..

ـ قصة "دوبونزاتى" الكاتب الايطالى كان اسمها " الطابق السابع".. ابتسمت سهام وقالت..

ـ انسى الثقافة الأيام دى الله يخليكى..

ما قرأته طيلة حياتى أصبح ذاكرة محفورة فى عقلى وروحى ونفسى مثل مدينة كاملة.. فيها شوارع وحوارى وأزقة وعمارات وبيوت وشقق وغرف ودهاليز وممرات.. صارت الثقافة مدينة بحجم الوطن أعيشها وحدى..كنت أدرك أن الثقافة ترتقى بالفتاة التلقائية والريفية بداخلى، لكن مع الوقت كنت أشعر أننى أقرأ ثقافة وعليّ أن أعيش "تخلف".. لكنى عشقتها فقد كنت عبر القراءة أجدنى دون أدنى شك أفك قيودى واحدة فواحدة وأعمل على حل العقد التى تسبب فيها غيرى فى شروط الممكن والمتاح..

فى يوم العملية جاءت منال أختى وزوجها وسهام وشوقية الكردى.. أخذت سهام بيومى على جانب وقلت لها إنى دفعت إيجار شقتى فى أكتوبر لمدة شهر قدام.. مدة كافية لأن تخرج مجموعتين قصص قصيرة وروايتين من على الكمبيوتر وتقدمها للطبع بعد ما "تبص فيهم"... قالتلي بقسوة ..

ـ انت بت خايبة..

ـ اهو إنت .. افهمى بس

ـ مش عايزة أفهم.... الطب اتقدم بشكل مذهل... انت بتتكلمى ف ايه..وبعدين ما حدش ح يخلص قصصك ورواياتك غيرك.. وانت اللى ح تتخانقى مع الناشرين عشان كتبك..

ـ تفتكرى ح أعدى منها يا سهام..

ـ خلاص يا ستى ..قوليلى أبعت لك الشيك بتاع مكافآت النشر على الجنة والا على النار..

ـ انت شريرة..

ArabWorldBooks.com

بـدت ضـحكاتنا مثـل جبيـرة جـبس وشـاش وقطـن، أو محلـول جلوكـوز معلـق فـى الهـواء أو مريضـة تتـدلى منهـا خرطوم "الدرنقة" تقابل حبيبها خلسـة فـى نهايـة الطـابق الخامس..

كنت تحـت وطـأة الجـرح أفهـم جيـدا مـا يحـدث حـولى بينمـا العيـون ترتبـك وتضـطرب وهـى ترسـل نظـرات أشـم رائحتهـا جيـدا. تنسـى شـوقية ووفـاء وأختـى منـال أننـى "تربيـة قطـط".. صـرت أشـم البشـر والمواقـف والأحـداث لأستبطن كنهها.

دخلت غرفة الجراحـة.. قاعـة كبيـرة أشـبه بالسـلخانة لكن بشروط أخف وطأة. رأيتها حين رافقت جدتى ذات مرة وأنا صغيرة لشراء لحمة رأس وكرشة وفشة وكوارع.

الممرضـة عصـابية والأطبـاء فـى حالـة زهـو ربمـا بالذبيحة.. لم يتركوننى حتى أتأمل وجوههم حتـى رحـت فى غيبوبة تامة..

وكأنـه الغـيم تصـعب الرؤيـة مـن خلالـه ثـلاث تـرولات معدنية ملقى عليها ثلاث جثث أقصد أجساد ملفوفـة فـى ملاءات خرجت لتوها من غرفة العمليات لغرفة "الإفاقـة"... وضـوء شـحيح وأصـوات ممرضـات يتحـدثن عـن الطبيـب الفلانى والعلانى.. وصوت الجثة اليمنى ـ صوت رجل ـ

ـ انت عاملة عملية ايه..

ـ سرطان ثدى وانت ثدى برضه..

ـ لأ سرطان معدة..

وصوت الجثة الثالثة يطفح بالتعب..

ـ وطوا صوتكوا شوية.. مش عارف أموت

ثم نغيب ثلاثتنا إلى وقت آخر وعالم آخر..

الصوت كأنه قادم لتوه من فسحة بينها وبين اليقظـة دنيا مغايرة.. فبحثت بداخلى عن صـوت آخـر.. لـيس هنـاك يقين بـأن مـوتى هـذا مؤقـت .. ربمـا لوقـت لـيس قليـل لا أدرى مداه.. وربمـا يحـدث بعـث مـن نـوع جديـد.. ولتفـادى

ArabWorldBooks.com

الوقـوع فـى مشـكلات جسـيمة مـع الجثـث رحـت ألعـب لعبتـى القديمـة لتبديـد الوقـت والملـل..أجتر مـن غيمـات الزمن القديم مباهج صغيرة..

المشـهد كاملا تحتفظ به ذاكرتى وأستدعيه دائما ثم أتراجع .. آن الأوان لفك أسـره. هنـاك ضـرورة ملحـة ليكـون ماثلا أمامى مثل ذكرى فاضت رائحتها فى الخريف.. ووجه "فيفى".. "بنت عبد العزيـز بتـاع اللـبن" الـذى يتحـرك فـى شـوارع العباسـية البحريـة كـل صـباح وهـو يلحـن جملتـه المعهودة..." لبن..يا عزيز يا لـبن" وتصـلك الجملـة مشـكّلة ومنغمة وملحنة .. لحن طبيعى يوقظك على توقيت أشـبه بالساعة البيولوجية..وأحيانا يدخل معك فى نسيج الأحلام فـتحلم بـأن كـل الـدنيا بيضـاء والحيـاة بيضـاء وكـل شـىء أبيض..

أغلقت "فيفى " باب الفصل وأومأت لبنـات فصـل تالتة تانى ..كـل مـنهن تنـزع ثيـاب المدرسـة وتقشـر جسدها فى نصفه الأعلى حتى اللحم، لأرى أمـامى أثداء صغيرة ونحيلة مثل كرات .. رأيتهن يتحـركن فـى اتجاهى فتهتز الكرات وهى تتقدم نحوى فى مسيرة عجيبة ومدهشة..

ـ اقلعى..

ـ أقلع ايه؟.. فى ايه..؟

ـ إقلعى .. ماحدش ح يقلعك..

ـ انتو اتجننتوا ..حا أفتح باب الفصل واجرى..

ـ اقلعى..

ـ حافتح شباك الفصل وحصرخ..

ـ اقلعى ..

على الباب تقف فردوس بنت النحاسة بجسدها الضخم ترسـل نظرات نارية مرتبكة . جدتها بنت جـامع بفلـوس البيـت الـذى تهـدم وباعتـه واشـترت سـطوة الايمان والتقـوى...تجلس أمـام الجـامع لتختـار بعنايـة فائقة من يصلى من بين كثيرين تعيـدهم بـلا صـلاة..

ArabWorldBooks.com

لابد أن يكون نظيفا ويرتدى ثيابا تليق بدخول جامع النحاسة..

ـ اقلعى..

كنت أضم فتحة قميصى الابيض على صدرى وأتعلل بالزراير الكثيرة.... زى مقدس.. قميص أبيض بارلون بفرانشة بيضاء محلاة بالدانتيل والجيب الكحلى الترجال وقروح ركبتى النحيلتين تطل هى الأخرى تلويحا لما يمكن أن يحدث..

ـ اقلعى..

عرفت أن "السوتيان" الأسود الساتان هو الهدف.. أسريت لزميلة لى أن أمى حكمت علىّ بارتدائه لأن صدرى رغم نحافة جسمى يهتز أمامى. أمرت عمتى بشرائه من العتبة وقد عرفت المقاس بنظرة عينها المدربة..

كنت حقا أول فتاة فى الفصل ترتدى ـ قسرا ـ"سوتيان" ولم أكن أدرى ان هذا سبق أحسد عليه وأحاصر من أجله بعيون مضطربة وأجساد نحيلة.. كان علىّ أن أوافق لتتبادله بنات الفصل فى فرح وحبور وبهجة تفتح بواكير أنوثة الجسد والروح.

كانت أجسادنا جميعا سمراء عجفاء تطل من قمصاننا البيضاء مثل أعواد قطن جافة.. وكأنه قدر بنات العباسية الاعدادية..

ارتدته كل واحدة ورأت نفسها فى زجاج نافذة الفصل المغلقة والواقفة خلفه أحلام أخت فردوس بنت النحاسة.. تسده بظهرها حماية وضمانا لنصاعة الرؤية.. لترى كل واحدة نفسها وهى ترتدى حمالة صدر .. ساتان أسود ودانتيللا، وأنا واقفة فى حراسة سهير بنت الصهبانة وسعاد بنت الفكهانى..نماذج فذة من عصابة بنات شارع المناخ فى العباسية، كما كنا نلقبهن.

ArabWorldBooks.com

أضم ذراعى على صدرى وأستعجلهن ليردونه خشية أن تدخل المشرفة أو حتى الفراشة فجأة..

المدهش أن المشهد بدا احتفالية ببداية كيمياء تتشكل فى أجساد نحيلة بأنوثة كامنة لبنات الفصل وكنت أخشى أن أرتدى بقية ثيابى وأعود إلى بيتنا بلا حمالة صدر فتنصب جدتى محكمتها القاسية..

تدخلت عوامل الصدفة بغياب عدد كبير من المدرسين والمدرسات فى رحلة جبرية لتأدية واجب العزاء فى والدة الناظرة. بدا ذلك - لصالح بنات الفصل ورغبة كل واحدة فى أن ترى نفسها بنفسها وهى ترتدى "حمالة صدر" ساتان أسود وتتحرك أمام البنات وتمعن النظر إلى نفسها فى زجاج النافذة المدعوم بظهر أحلام بنت النحاسة.

لم تكن فتحتا الحمالة تمتلىء بأثداء البنات تماما.. كن نحيلات بشكل مبالغ فيه وكأنه قدر واضح أن تكون بناته نحيلات وبلا أثداء ،حتى "إيفيت" بنت عم صبحى وأم جيهان جيراننا الأقباط والتى كان لها جسد ممتلىء نسبيا.

كنت أشعر بعبء امتلاء الحمالة بثديىّ على نحول جسدى وبوادر شىء تحاصرنى من أجله عيون شباب الحى وأنا أخفيه باحتضان حقيبة المدرسة، وكأنه عيب خلقى..

طفر بداخلى سؤال عن أهمية تلك القطعتين من الجسد لتهيأ لهما "شيالات" خاصة.. كنت أربط شعرى بشريطة بيضاء مثل نيللى وأقصر الجيب الترجال الكحلى وأشمر القميص مثل سعاد حسنى وأفتح زرارين لابتعاث قدر من الهواء ثم تزجرنى أمى فأغلقهما لأرتاح من "زنها".

كان النموذج والمثال للبنات "سعاد حسنى" فى الست الناظرة وماجدة فى "المراهقات" ونيللى

فى بيت الطالبات مع اختلافات طفيفة ربما فى الحى وشكل البنات والشباب فيه..

كنت اسمع بأذنىّ بنات المدرسة وهن يتبادلن الحكاية السرية والسحرية..

ـ مفيهاش غير صدر..

ـــ بنت الكلب..هى الوحيدة اللى لابسة "سوتيان"..

ـ احنا كمان قلعناهولها ولبسناه واحدة واحدة...

فى نهاية اليوم ألقوا لى بـ "السوتيان" وقد بدا مثل عظمة نهشها ألف كلب.. ألقوها لى مشيعة من عيونهن بنظرات الحسد والغل..ولا أدرى لماذا وسرعان ما جريت به إلى التواليت فى نهاية المدرسة ثم خرجت بعد أن تفاديت قراءة الجمل الصغيرة المكتوبة على حائط وباب التواليت..

ـ امتى آخر مرة باسك الواد ع السلم ..

ـ بنت النحاس ماتنباس..

ـ بنت اللبان ... اللى بان ..بان

خرجت أنظر يمينا ويسارا خشية مؤامرات أخرى.

كانت المدرسة بالنسبة لى مؤامرة كبرى على روحى وعقلى.. كل المعارف التى يسكبها المدرسون والمدرسات فى رأسى أعرفها من كتب مكتبة عم حسان جارنا.. باستثناء الجبر والرياضيات وهى معارف سقيمة لا أشعر بأى رغبة فى فهمها..

فى البيت حكيت لعمتى "منصورة" كانت تعيش معنا.. بعد أن تزوج عليها زوجها فكرهته وطلبت الطلاق.. تحاصرها عيون أمى أنها هى التى ستتسبب فى إفسادى ربما تقصد إنضاجى قبل الأوان.

ArabWorldBooks.com

فى ذلك الوقت كان عمى حسان جارنا وتاجر الكتب بالجملة. يورد لتجار الكتب على سور الأزبكية ينزح من ركام الكتب التى تسقطها سيارة نقل أمام الباب ويصعد بها مع عماله الى شقته. كنت أقف مثل قطة على باب جزار تنتظر قطعة لحم يلقيها لها أحد صبيانه. أترقب لحظة يسقط فيها أحد الكتب من العمال أو أدخل لإحدى بنات عم حسان لأنتقى كتابا فى مقابل أن ترى كل واحدة صدرها فى حمالة صدرى.

دارت "حمالة صدرى على بنات المدرسة وبنات العمارة وبنات العائلة والحى.. حمالة صدر سوداء من الساتان الأسود،موشاه بآجور ودانتيللا رفيعة. كانت حلما لبنات شارع المناخ فى ذلك السن..

.. صوت عجل الترولى الذى يسرع بى فى اتجاه الغرفة يقلب طبقات من ذكريات صغيرة وكبيرة، ووجه شوقية الكردى باكية العينين تمسك بيدى وتقبلها وسهام بيومى تحكم الغطاء على جثتى.. ثم أشعر بأننى أبعث من موت صغير.. وصوت الممرض يؤكد أنه فى الغد لابد من الصعود للطابق الخامس وتأخذنى غياهب أخرى فلا أفيق إلا على صوت شوقية الكردى وسهام بيومى وأخى مجدى الذى يجزم أن هذه الغرفة ليست أفضل من غرفة الطابق الرابع..

ArabWorldBooks.com

ArabWorldBooks.com

حالة الاستعداد القصوى...

نزلت من بيتى وأنا أردد بينى وبين نفسى...
سأرفع حالة الاستعداد القصوى حتى آخر سنتيمتر طاقة فى جسدى وفى روحى.. حدثنى يوسف غطاس فى التليفون طبيعة مرض السرطان.. فقال ..

فى الجسم خلايا تفقد وظيفتها فتجن وتشرد وتوجه كل طاقتها لإفشال وظائف الجسم الأخرى التى مازالت لها وظيفة، فتهاجم وظائف الكبد والكلى وجهاز المناعة وتقتل كرات الدم الحمراء وتنهك الجسم كله... والعلاج الكيماوى ـ أول جلساته اليوم ـ يفعل ما هو أبشع.. يعتم الرؤية ويسدل استارا من الكآبة ويهاجم الوظائف الحيوية للجسم ويسقط الشعر والأسنان ويصبغ الجلد بألوان داكنة ويرسى فى الحلق طعم السأم مع رغبة دائمة للتقيؤ..

فكرت وشردت بعيدا عن يوسف، وللمرة الأولى أتركه يهدر وأنا فى عالم آخر..كنت أتساءل فى نفسى .. هل خلايا الجسم فقط التى تفقد وظيفتها.. لو اعتمدنا منطق التماثل بين خلايا الجسم وخلايا المجتمع والكم الهائل الذى فقد وظائفه ألا يجن ويشرد وينقسم ويتكاثر ويهاجم من يملكون وظائف ومال وسكن وحب وحياة.. ويعيثون فى الأرض فسادا وتطرفا وتعصبا وجريمة وادمانا وعهرا..أليس المجتمعات هى ايضا يتم سرطنتها..

أفقت على كلمات يوسف..

: رحتى فين..؟..

رفضت أن يأتى شقيقى عاطف ليأخذنى من المدينة. حتما سيتكبد معاناة فادحة أن يسافر من القاهرة لمدينة أكتوبر مرتين، فتجاسرت على الجرح والألم وقلت أعيش الحياة. أخذت الميكروباص وجلست إلى جوار السائق ودفعت أجرة "نفرين" كنت أخشى أن يرتطم أحد بجرحى ومازلت مثل كيان زجاجى هش، وبدت العيون توجه إلى سهام الادانة بالترف والرفاهية ولا أحد يدرى الحقيقة المحفوفة بوطأة الحزن والألم..

نزلت عند كورنيش النيل وأنا أحس جيدا أن نظرات عيون ركاب الميكروباص تزفنى بنظرات الغل والحقد وربما الحسد. أخذت تاكسيا ..لوح سائقه بأننى مسيحية لأننى

غير محجبة.. صمت ومررت ملاحظته ونظرت فى ساعتى أرقب موعدى هناك فى التاسعة لتناول الجرعة..

مشهد الحدائق التى تغرق فيها المستشفى لم يستطع أن يرفع عن نفسى إحساسها المقيم بالسأم.
ظللت أنتظر عاطف الذى تبرع أن يرافقنى الجلسة الاولى . مرت الساعة للعاشرة تركب سلحفاة عتيقة تتراوح بين وجوه المرض فى انتظار قدر غريب ووجوه عاملات التنظيف بثيابهن الزرقاء يتابعوننا نحن نساء الثدى الواحد بعيون مفتوحة على نوافذ أخرى .. ربما على جيوبنا أو حقائبنا الجلدية دون أن يأبهن بمواقع الألم. يرونها مجرد نوافذ مفتوحة للرزق.
أكدت الممرضة أن الجرعة اليوم حقا..ونادت أسمى..

السرير الأخير على اليمين إلى جوار النافذة لأرى مساحة من السماء .. مساحة ضوء وقدرا لا بأس به من الهواء.. كل الأسرّة محاطة بستائر تعزل كل مريضة عن الاخرى. غير أن تبادل نظرات العيون شحن النفوس والأرواح بمزيد من الدعم والمساندة من رفقاء الألم الواحد.. كلنا نساء بثدى واحد وكم هائل من نظرات البؤس والوهن..والرجال يلعبون أدوار السنيدة، لا مجال للعب أدوار أخرى..

تساميت على الألم والسأم.. طيلة عمرى أعالج ما ينقص فى احتياجاتى بالسمو. فعلت ذلك مع الوحدة والفقر ووظيفتى القامعة ومع الرجال وأشكال الإدانة الاجتماعية التى تسدد للمرأة الوحيدة والمرأة الكاتبة غير المدعومة بحزب أو مؤسسة ثقافية أو اعلامية أو تكون احدى بنات الأرستقراطية الثقافية.
أخرجت من حقيبتى جريدة، أحرص على أن أضع كتاب أو مجلة أو جريدة فى حقيبة يدى لوقت السأم. داهمنى

ArabWorldBooks.com

الاحساس بالوحدة فطلبت سهام بيومى ويوسف غطاس وشوقية الكردى وعزت عواد.

لا أحد يرد فى المدينة.

تعاليت على الرغبة فى سماع صوت بشر وظللت أتابع مساحة الضوء الغزير التى غمرت العنبر وأزاح الكثير من الشحوب عن وجوه المريضات ، والألم فى العيون يسكب نفسه على الأسرّة والوجوه نظرات وحسرات.

فتحت كل واحدة مصحفا وراحت تقرأ بعينيها . أو تنهض لتتوضأ وتصلى. جاءت فتاة صغيرة تحدوها بعض البدانة والى جوارها أختها فتة بيضاء خفيفة الظل راحت تبتسم لى فى محاولة لحل شفرة فمى الذى صار مغلقا على الكثير من الحزن والكآبة..وسؤال ضخم بحجم المأساة

لماذا أنا؟

ولم تكن اجابة السؤال إلا بسؤال..ولماذا كل هؤلاء النساء

شقيقتها السمراء هى زميلتى فى الجرح والألم. نجلاء ذات الثامنة عشرة عاما.. استأصلت ثديها الأيسر. وقد مر اليوم شهران ونصف تقريبا ومازالت تبكى وتصرخ فى الليل. لغتها تدل على أنها من العريش من شمال سيناء، فضلا عن الجمال السيناوى الذى يحدوها وشقيقتها الشقراء.

رنات الموبايل تفرحنى، أن صوتا بشريا على الجانب الآخر من المتاهة..كان يوسف غطاس .. هدأنى وأوصانى بأننى يجب التعامل مع المسألة ببساطة شديدة وأن أداهم الكيماوى قبل أن يداهمنى. كم هو جميل هذا الرجل الذى أعرفه من وقت قصير. عمدته طبيبى الجميل الذى ما أن أرفع سماعة التليفون وأسأله حتى يجيبنى

ويشفى حيرتى. فكرت فى أن أزوجه صديقتى المسيحية إلا أن المرض فاجأنى وفاجأه..

لم يأت أخى عاطف وكدت أفقد الأمل فى مجيئه ثم حمدت الله أننى سمعت صوت يوسف وراح يعزز من عزيمتى وطاقتى على المقاومة.. رفضت أن يرانى فى كل هذا الضعف.

حاولت أن أمد جسرا بينى وبين الفتاتين . كانت ابتسامة الشقراء دافئة بشكل يشيع الأمل فى أجواء الألم. وبدت نظرة السمراء حزينة ومتشائمة. نهضت واقتربت منها وحدثتها.. ثم سألتنى..

ـ انت يا صحفية يا محامية..صح..

ـ أنا كاتبة ..أديبة يعنى.. باكتب قصص وروايات..حاجات زى كدة.

ـ زى روايات عبير.. خلاص اكتبى حكايتى.. حقعد تحت رجليكى وأحكيلك..يا بوى .. الدنيا وحشة بشكل.

ربتت على كتفها وقبلتها..

ـ ولا يهمك..بكرة ح نفتكر الأيام دى ونضحك..

قالت سهام لى آخر مرة

" أخشى عليك من تجبرك على نفسك.."

ماذا أفعل.. أعلق الناس على شماعات ليأتوا معى.. أخى أو صديقة لى..

تذكرت مقطعاً من قصيدة لمحمود درويش..

"بقاياك للصقر..من أنت كى تحفر الصخر وحدك"

اقترب موعد جرعة الكيماوى، بدا ذلك فى حركة الممرضات بين الأسرّة حاملات زجاجات بلاستيكية بيضاء..فكان لابد من استدعاء عاطف على وجه السرعة. أوصيته بأن يأتى متأخرا. من أجل أن يوصلنى فقط، وحتى لا يرانى وأنا أتلقى الجرعة .... تليفونه المحمول لا يزال مغلقا فحدثت أمى وأكدت عليها بضرورة البحث عنه وأن

ArabWorldBooks.com

يحـدثنى. صـوتها يشــحن فـى نفســى إحساســاً مرعبـاً بالحزن والكآبة. بدت وكأنها تعرف.. مازالت لدى الرغبة فى اخفاء المسألة عنها..

جاء عاطف بلحيته وأناقته التى يحرص عليها فـى كـل الأوقات.. تخيل أننـى أنجـزت المهمـة. أخبرتـه أن لا شـىء يحـدث وأننـى هنـا مـن التاسـعة ومضـى أكثـر مـن أربـع ساعات دون جدوى..

جلس إلى جوارى على السرير وتراوحت عيونـه بينـى وبين الشـقراء السـيناوية شـقيقة نجـلاء ووجـدتها تنبـرى وتأتى لتسأل عنى. ابتسمت وتجاهلت أهواءهـا المضـمرة وأخذت منها جريدة الأخبار.

لا شــىء يحـدث فــى الحيـاة.. اعلانـات عــن دشــات ومحمول وسلع استهلاكية ومراكز تجميل وحـوادث وحركـة بانورامية للسادة أعضاء مجلس الشعب والحكومة. والأبراج والحظ..حظى اليوم البهجة حتمـا قادمة..الممرضـة قادمـة تحمل جرعة الكيماوى. فتاة نحيلة نحـول مبـالغ فيـه،تحيط أسنانها بسياج من السلك فى محاولة لتقويم البارز منهـا. أعطتنى حقنة كبيـرة مضـادة للقـىء وثانيـة لتبطـين جـدار المعدة. اجراء استراتيجي فى مواجهة جرعة الكيماوى..

أكدت الممرضة بأن الاثنتين الأخريين ستؤلمانى.. نظـر عاطف مشفقا فابتسمت وقلت له..
ـــ.. لمـا بأعمـل حـلاوة أو أنـزع الشــعر عــن وجهـى وحواجبى بأحس بكثير من الألم....
مساحة الضوء التى تتساحب مـن الحجـرة أوحـت لـى بأن الخطر مازال قائما. وأننى لم أجتزه تماما..

ArabWorldBooks.com

حين قرر لى الطبيب علاجا هرمونيا فقط نظر طاقم أطباء الجراح ـ الجزارون المهذبون كما يقول برنارد شو ـ بحذر وأكد اكثرهم بضرورة أخذ جرعات " الكيماوى ".
أجمع الكل على أنه يطهر الجسد كله من احتمالات عودة المرض. وبدلا من مراودة شبح الموت عبر خمس سنوات العلاج الهرمونى لابد من علاج حاسم..
أمسكت الممرضة كفى وقالت:
ـ انت أول مرة تاخدى كيماوى..باين
ـ بيبان ازاى؟..
لسة ظهر كفك بحاله..

رحت أتابعها والبنات والنساء فى أعمارهن المختلفة مثل سجينات الحالة واللحظة الراهنة. أغلبهن أمسكن بالمصاحف ورحن فى حالة قراءة متعمقة هاربة وفارة. وأقاربهن يقشرون الموز والبرتقال والتفاح لتفادى القىء على بطون خاوية.

بعد وقت أتت الممرضة بثلاث زجاجات بلاستيكية منها واضح العبوة ومنها المغلف بورق معدنى لا يشى بما فيه. وضعتهم إلى جوارى على السرير. نظر عاطف..
ـ كل دول..
ـ الواحدة تستوعب ساعة..
ـ يعنى تلات ساعات..
ـ لو وراك حاجة سيبنى لوحدى..
أخبرنى أنه لا يقلقه شيئُ إلا أن هذا وقت توزيع الزكاة وهناك من يقصده فى توزيع زكاته على المحتاجين.

علقت "ايمان" ـ الممرضة النحيلة ـ زجاجة محلول الكيماوى الأولى فى الحامل المعدنى وأدخلت مبسم الخرطوم الشفاف فى فتحة الكانيولا وأطلقت المحلول فى وريدى.. وبدا شىء بارد يتسرب إلى جسدى..

ArabWorldBooks.com

أخبرنى يوسف غطاس أنها كمية هائلة من السموم لمحاصرة المرض.. شبهه بأنه مثل ضيف ثقيل يدخل الجسم وعلى المريض أن يدخل له عناصر طرده. كل أنواع الطعام الممتعة تجعله ينتعش ويستقر ويستمروكل أنواع الطعام غير الممتعة تجعله يهرب..

أوصانى يوسف بنسيان عدد هائل من الأطعمة يتغذى عليها السرطان مثل اللحوم والفاكهة والسكريات والألبان والمنتجات الالبانية والدهون والزيوت .. لم أوقف معلوماتى على يوسف غطاس رغم ثقتى الوافرة فى عقله ومعلوماته الطبية. فتحت الانترنت ووضعت كلمة سرطان الثدى.. وحصدت كما هائلا من المعلومات ثم كتبت على الباحث "جوجل" العلاج الكيماوى والإشعاعى.

.

وعرفت كما هائلا من المعلومات وطبقتها قدر استطاعتى .. فالأطباء يتعاملون مع المرضى بحالة من الاستعلاء أتوجس إزائها..لم يتحدث معى واحد منهم. يبدون لى مثل الكهنة فى المعابد القديمة يحرصون على غلق أفواههم خشية أن تسقط منها الدرر..

كنت أعلم جيدا أن سوائل الكيماوى هذه مواد سامة تستدعى شحذ جهاز المناعة لمواجهتها والتصالب إزائها.. حين رغبت فى النوم حذرتنى الممرضة.. تذكرت أن فى سجون التعذيب يحظر النوم أيضا..

أخفيت عن أخى احساسى بالاحتياج إلى بشر يساندوننى فى تلك اللحظة الراهنة حيث "الثقل" شديد على عقلي وظهرى .. بدا مترددا بين البقاء والذهاب إلى جمع ثواب أعظم. مسحت دمعة واصلت انحدارها فسألنى عن ثمة ألم..

بعد وقت وهو يواصل الحديث عن انجازاته فى عالم المال والبيزنس وأنه لم يقدم تنازلا للواقع الذى يتحرك

ArabWorldBooks.com

فيه، غير أن أخواتنا البعدا يتابعونه من آن لآخر من أجل لحيته التيطلقها . دهشت فلا تبدو على لحيته أنها لحية اسلامى متطرف بل لحية فنان تشكيلى أو كاتب أو أديب أو موسيقى..

منذ أفسده أبى بعد عودته من العمل فى احدى شركات البترول الأمريكيةفى السعودية،ملأ روحه كراهية للتعليم فلم يستطع تحصيل غير مؤهل متوسط ثم آثر أن يجمع بنفسه خبرات عديدة من ممارساته وتلك الخبطات والضربات والمشاكل التى وقع ضحيتها فى البدايات البراقة مع السوق حتى حفظ عن ظهر قلب آليات الحركة فيه. الآن وبعد سنوات قليلة وقد صار "رجل أعمال" بالمعنى المتداول والمتعارف عليه هذه الأيام ،وتحلق حوله بعض من أخوته فى الإسلام من أهل الخبرة فى التجارة والبزنسة..

احساسى بسائل الكيماوى بدأ يختزل معنى آخر بأن العالم مائع والدنيا شاحبة تشد تركيزى مع عاطف الذى كان قد أراد أن يخرجنى من الحالة ففتح موضوعات عدة..

حدثت نفسى بأن شيئا ما مطهرا وقامعا يدخل جسدى بغية الاجهاز علي المرض نهائيا، وعلىّ إذن تحمله بل والاحتفاء به.. فالكيماوى إذن أداة دفاع أساسية لابد من التعامل معها بكثير من الود لا السأم ...ارتحت للصيغة ورحنا نتبادل وعاطف أطراف الحديث.

كنت أراه دائما هو ومنال مثل أولادى. حين ولدا كنت فى سن الزواج والإنجاب بمعايير بيتنا فساعدت أمى فى تربيتهما. جاءا أيام الرغد والرفاهية فى فترة سفر أبى الى السعودية وحالة الصعود الاجتماعى وبمجرد عودته وكان مهزوما لأسباب نجهلها جميعا رأيته ومن دون أن يدرى يعمل على زرع عناصر كراهيتهما للتعليم والثقافة.

ArabWorldBooks.com

نجح مع عاطف لكنه فشل فشلا ذريعا مع منال التى عكفت على تربيتها وتعليمها وتثقيفها وكانت تتابعنى وتقلدنى وأنا أقرأ وأكتب...

كنت وعاطف أخوات عبر البطاقة الشخصية. كان شاردا طول الوقت مع أصدقائه وعالمه الذى يبتعد تماما عن عالمى..وحين قرر الزواج لم يستشر أحدا ولم يخطرنا إلا لنلعب دورنا كديكور اجتماعى.. فكانت زيجته التى أفرزت بنتا ذكية وجميلة وإبنا ذكيا وشرسا .. كائنات جميلة ومزعجة. ثم سرعان ما تصالحت معهما.
كان دائما مبتعدا لا يزورنى ولا يذهب معى إلى أى مكان لأننى غير محجبة وأكتب أدباً يرى أن أغلبه من خبرتى المستقاة ممن حولى وهو أحدهم، كما أننى غير متزوجة وأعيش وحدى فى مدينة بعيدة. وكلها من وجهة نظره تجعلنى فى عرفهم امرأة متمردة.

فجأة وجدت عاطف يسترسل فى سرد جوانب ملغومة من حياته .. حتى حكاية زواجه للمرة الثانية التى تناقلناها مثل سر لا يفشى .. الدين يمنحه الرخصة كاملة لتحسين شروط حياته العاطفية والجنسية.

حكى واسترسل وكانت تأخذنى منه نظرات النساء الممددات أمامى فى مشهد بائس.. وزجاجات المحلول تتدلى من حامل معدنى إلى جوار سرير كل واحدة.. اختلط اللون الأزرق باللون الابيض والساعة لا تتقدم كثيرا..والعريشية الشقراء الجميلة تناور عاطف بنظراتها رغبة فى الابتعاد عن وجه أختها المنكوبة فى ثديها..

تركته لها ونظرت فى الجريدة وراحا يتجاذبان أطراف الحديث..
بعد أن أغلقت الجريدة حاول أن يداعبنى.. أخبرنى أن العريشية الجميلة سألته:

ـ هى أمك؟.. فرد عليها
ـ أيوه.. ساعات يخلق من الفاسد عالم.
ابتسمت وسألته
ـ انت فاكر نفسك عالم عشان ملتحى ومتدين.. يابنى دى دلوقت.. بقت عدة شغل.. بزنس
ـ بزنس..بزنس..بس نعيش..
ـ فعلا .. المهم نعيش..

يسعى دائما لبهجة نفسه ويوصى أمى بأن تخفى عنى أخباره وحكايات الحب والزواج التى تنفرد على السنة أخوتى ثم تطويها الأيام وعدم امكانية تحقيقها. يخشى من أن يصير بطلا لقصصى.. هو صاحب الجملة الشهيرة التى يرددها أخوتى عنى.. "بتاخد الناس لحم وترميهم قصص.."

نظرت إليه وكأننى أستدعى لحظات كاشفة عما فعلته يوما وأرغمت بقية أشقائنا عليه..
حين رأيته ضحية لأبى جمعت أخوتى وطالبتهم بأن يتنازل كل منهم عن نصيبه فى نصف ورشة صغيرة أقامها أبى من أموال السعودية قبل تبديد أغلبها فى شركات توظيف الاموال ليتملكه عاطف وحده.

وبالفعل حدث ووافق أشقائى وامتلك عاطف وحده نصف الورشة ورأيت أن هذا تعويض عادل عما فعله أبى به حين ملأ روحه كراهية للتعليم فعزف عنه ولم يهتم بإحراز مؤهل عال، فى الوقت الذى كان الكل يجزم أن التعليم هو المرفأ والخلاص.

الغريب انه لم يأبه كثيرا بالعمل فى ورشة أبى وطار مثل طائر يبحث عن أجواء أخرى للطيران وانساق مع أقرانه فى التجارة. التجارة فى كل شىء.. فى الآلات والملابس والماكينات والأدوات المنزلية والكهربائية وقطع

ArabWorldBooks.com

الغيار . سافر أرمينيا وتركيا وسوريا وإيطاليا وغيرها وعاد يتعامل معنا باعتباره رجل أعمال فى طوره الثانى. لم نجلس مرة لنتبادل أطراف الحديث مثل اليوم. وحين أحرز مكانة ومالا رحت أحدثه فى ان يعيد لنا نصف الورشة فابتسم وقال ..

"أنسوا .. أمكم فى العش وألا طارت"..

بدا الحنان يطل من نظرات عينيه وهو ينحى مهامه الكثيرة جانبا ويتحرك معى فى كل الاتجاهات. يذهب معى للتحاليل وللغيار على الجرح ويشترى احتياجاتى ويذهب لاستكمال الأوراق من عملى. بدا عاطف حنونا ودافئا ومتفاعلا معى بشكل لم يصدقه أحد. صرت ادرك على نحو ما أننى أراه لأول مرة وقد حجبته عنى أفكار عجيبة عن الحجاب وعدمه والمرأة العورة التى لابد لها من الستر.. الآن صرت اجزم أننا صرنا أشقاء فعلا.

بدا ـ من أثر الكيماوى ـ أن كيمياء أخرى بدأت تفعل فعلها فى الجسم والروح . تنشر البرد زمهريرا، ومظاهرالعتمة والسكون وجسد غير قادر على الاسترخاء. كنت انظر وكأننى بعيون زجاجية تنفتح فقط على الأشياء والبشر بلا أدنى انسجام..

فرغت الزجاجة الثانية من الكيماوى ولم يفرغ عاطف من حكاياته فى عالم المال والنساء. .

ArabWorldBooks.com

ArabWorldBooks.com

مرثيـــة لصـــدر

وكأنى أنهض من فتحة فى أخر القبـر, أخـربش التـراب والأكفـان وجيرانـى مـن الجثـث وأخـرج للنهـار..أنظر مـن نافذتى المطلة على حديقة جميلة وأحمـد الله وأنـا أبـتهج بأننى مازلت فعلا على قيد الحياة.

فـى جلسـة الكيمـاوى صـباح أمـس دخـل جسـمى معركتـه الضـارية مـع آثـار المحلـول المـزود بكـم هائـل مـن السـموم. حقق جسـمى انتصـارا بعـد انهـاك وتقيحـات فـى الفم والشـفاه والرغبة الدائمة والملحة فى التقيؤ، وفقـدان الشـهية مـع وصـية الطبيـب بأهميـة الطعـام وخاصـة

البروتينات أحد أهم "الميكانيزمات" الدفاعية.. صرت أتقبله كصيغة دفاعية ضد المرض...على الرغم من أن آثاره الجانبية أشرس من السرطان نفسه.

بدأ شعرى فى التساقط ووجهى فى الشحوب وغامت الرؤيا وسرحت درجات من الكآبة فى كيميا الدم والروح لكننى لم أستشعر أدنى رغبة فى الاستسلام ..صورتى فى المرايا تذكرنى بكائنات فضائية رأيتها فى فيلم أمريكى فخبأت مرايا البيت بملاءات ومفارش ورحت أتعامل مع صورتى التى ما زالت تحملها الذاكرة.. امرأة جميلة ومبتهجة لأنها ما زالت على قدر مسئوليتها، تجاه نفسها وتجاه الحياة وتعيش كإنسانة وككاتبة.. طريق لا يقبل الانحناء..

بعد أن تناولت قهوتى وطعام الافطار وتبعهما العلاج انتابتنى رغبة عارمة فى البكاء فى حضن أحد، لا أدرى لماذا تحدونى هذه الرغبة الآن.ربما يراها البعض انهيارا لكن الجميع يجزم أننى تصالبت فعلا منذ البداية.

عرفت أمى بما حدث على الرغم من إصرارى ألا تعرف. ربما فكر اخوتى فى اخلاء مسئوليتهم فأخبروها. فضلا أن لا أحد يتبقى من يومه وقت لرعايتى فلابد من تقديمها كبش فداء رغم كبر سنها وهى التى لا تستطع أن ترعى نفسها ..جاءت بوجه ممسوح من الملامح وجسد تقلص فى نصفه ووقفت تفتعل ابتسامة .. فافتعلت ضحكة وأخبرتها أن المسألة بسيطة للغاية وأننى أتلقى العلاج والحمد والشكر لله الذى "قدّر ولطف" وأننى سأتحمل قدرى..

ـ والحمد لله عندى صدر ثان..

ابتسمت أمى أو هكذا بدت ، ثم وكأنها لم تحتمل كادت تسقط على الأرض وانفجرت فى بكاء شديد. أخذتها فى حضنى وربتت علي ظهرها ..ثم سرعان ما نزعت

نفسى من حضنها فمازال الجرح طريا والألم ضاغطا بين ثنايا العظام والروح..

هدأت من روعها ورحت أمازحها وأمتص ملح الغضب فى عيونها وروحها.. أزعم أن أمى "تربية يدى".. منذ وعيت مبكرا على عناصر الظلم والقهر فى بيتنا، أرسى قواعده أبى وجدتى حتى بذوره أخوتى الذكور، فكان لابد من سبيل للمقاومة.. فعرفت القراءة والكتابة أحد أدوات المقاومة وأنا أعاهد نفسى على تفادى ميراث أمى من الاستسلام والإذعان. على مدى عشرين عاما حررت نفسى حقا بالقراءة والكتابة ، لكنها لم تصلح كأدوات لتحرير أمى من أبى.. ظلت فى بيته حتى بعد أن غادرته لأسكن بعيدا وكان قرارا صادما للجميع، لكننى ظللت أحررها عن بعد ..كنت أتعامل معها كطفلة كبيرة أساندها وأنا أرى أبى مازال يمارس عليها سطوته وقد تجاوزت السبعين..

كنت أطلبها فى التليفون كل صباح وأدعها تحكى وتحكى لتنزاح كل غيمات النفس والروح وفاتورة التليفون تأتينى كل ثلاثة أشهر بمبلغ مفجع، فأمى حكاءة من طراز فريد ودائما فى جعبتها حكايات ساخرة ومؤلمة وموجعة وكان زوجى يجزم لى بأن أمى هى "المبدعة" وأنا أنقل عنها وكنت أضحك وأوافقه..

كانت تسرد حكايات قهر أبى لها وأن المسلسل لم ينته بعد.. وأنا أخفف عنها بأنها ليست نهاية العالم لو صار لديها مرض ثالث،وعليها إذن أن تتعامل مع أبى باعتباره هكذا وتروضه كما روضت السكر والضغط من قبل.

كانت تضحك ثم تنهض لتفرد السجادة وتدخل فى الصلاة.. وحين تختم الصلاة تظل تدعو لى بأن "يفتح الله لى بابا ما عليه بواب ويجعل فى لسانى سكرة وفى

ArabWorldBooks.com

وجهى جوهرة ويرزقنى بـ سـرة البخيـل".. كنـت أضـحك وأنا أقول لها..
" ركزى والنبى على سرة البخيل "

أعلم أننـى حـين أغـادر بيـت أمـى سـتبدأ يومهـا مثـل فراشـة.. تحتفى بالحياة وتغدق على جاراتهـا مـن بهجتهـا الدائمة وتتابع ماتشات الكورة ونشرات أخبار العالم وتبكـى للذى يحدث فى العراق.. ثم تتوقف لتسألنى:
ـ أخبار سليم إيه..
ـ كويس..
ـ بيكلمك
ـ لأ..
ـ أمال عرفتى منين انه كويس
ـ طالما ماعنديش خبر سىء يبقى كويس..
ـ تفتكرى عرف اللى حصل
ـ أو ما يعرفش.. مش فارقة معايا..
ثـم ترثـى لمـا يحـدث فـى فلسـطين وهـى تسـبح بمسبحتها..
ـ أخبار نادية الفلسطينية ايه؟
ـ اتقبض عليها وهى داخلة حيفا تعزى فى أختها اللى عذبت وماتت فى السجون الاسرائيلية ...

ثم تواصل أمى رثائها لما يحدث فى العالم مـن كـوارث ونكبات ثم تعرى رأسـها ويفـاجئنى شـعرها الأبـيض الـذى تخفيه دائمـا تحـت طرحتهـا البيضـاء وتـدعو علـى الـرئيس بوش وشارون.

حـين جـاءت لتقـيم معـى بعـد إجـراء الجراحـة وبدايـة العلاج الكيماوى.. كانت تؤذى مشـاعرى بنظـرات الحسـرة والشـفقة وأنـا مسـتلقية فـى فراشـى خـائرة القـوى .. أتعامل مع كل أشكال الوهن والألـم علـى إنهـا اجـراءات أو مراحل قصيرة وسوف تنقضى....

ArabWorldBooks.com

كنت أفر من نظراتها وأمسك بالـ "ريموت كونترول" وأحرك العالم بين يدى فأرى الدنيا على قنوات الديش تتقلب ما بين الدم والعنف والقتل والتفجيرات والزلازل والسيول والتعذيب فى السجون هنا وهناك، ثم أركز مع سينما جميلة عربية وغربية ومناقشات حول كتب جديدة وقد أفقدنى المرض القدرة على التركيز فأركز مع المتعة البصرية.. وبعض حلقات من الدراما وبرامج "التووك شو" على الرغم ما تحويه من أوهام وأكاذيب..حيث السطوة دائما لصاحب الصوت الأعلى وقدرة الحواة والدجالين على المراوغة والمناورة فى طرح الأفكار واللعب على تناقضات الناس ومشاعرهم الدينية..

ضبطت أمى أكثر من مرة متلبسة بإفشاء سر آلامى لأخوتى، وحالة اليقظة التى يبعثها الكيماوى فى نفسى وعقلى فأظل طول الليل والنهار بلا نوم أوقدرة على حتى القراءة. كنت أغافلها وأفتح الكمبيوتر وكأننى أفتح عقلى لأطمئن على ما به رغم الجراحة والألم والكيماوى.. بعد وقت تكشف لى أننى أصبح قوية حين أكون وحيدة، فما أن نوهت أمى إلى أنها ستذهب لتأتى بعلاجها وبعض الأشياء من بيتها فى العباسية حتى وافقتها.

وأنا وحدى بلا بشر تحاصرنى عيونهم بالشفقة، يصبح بمقدورى استنفار كل قوى النهوض والمقاومة فأنهض عن فراشى وأرتب غرفتى وأنظف المطبخ وأعد وجبة ساخنة وأشرب كما هائلا من الماء.. قرأت أنه يخلص الجسم من الرواسب السامة للكيماوى والتى يسبب بقاؤها منتهى الإيذاء للكبد والكلى.. أو أجلس فى الشرفة لأتابع كما هائلا من العصافير وحركة البشر، أو أجلس أمام الكمبيوتر وأنقح أحد النصوص أو أكتب عن كتاب قرأته أو أكتب تأملاتى لإحدى الظواهر وأرسل كل هذا للنشر. حين أرى إسمى مطبوعا على الورق فى جريدة أو مجلة أتأكد أننى

مازلت على قيد الحياة وبداخلها وفى قلبها وبين ثناياها وطياتها وجنباتها الجميلة، ربما لأنني اختزلت وجودي كله في الكتابة والإبداع.

صرت أتعامل مع صحتى كالسيارة القديمة المتهالكة التى قد تستطيع أن تصلح أعطالها وتجوب بها العالم بينما آخرون لديهم سيارات جديدة وكبيرة ، يركنونها أمام بيوتهم ويعيشون فى اكتئاب مزمن وتنهشك عيونهم حسدا لانك تملا الدنيا حركة وبهجة. صار معيار الصحة والحياة لدى هو كم ما أحققه بهذا القدر من الصحة حتى مع المرض.

فى أعتى درجات الألم وانهيار الجسم لم أسقط أو أنهار ولم أبك حتى حين صرخت أختى الصغيرة فى وجهى تحثنى على البكاء والانهيار كما تفعل أية امرأة فى مثل هذه الحالة..

اليوم واليوم فقط تحدوني الحاجة للبكاء فى حضن أحد..

فكرت أن أحدث إحدى صديقاتى اللائى أثق فيهن لأرتمى فى حضنها وأبكى..

اتصلت بشوقية الكردى وأخبرتها عن حاجتى لحضن أبكى فيه قالت لي بطريقتها المعهودة..

ـ يا جميل احنا نجوزك راجل جميل وتعيط ف حضنه.

تذكرت صديقى الجميل والذى اختفى لأسباب تخصه، حين سمع بأزمتى. كانت أمنية عمره أن يبكى على صدر امرأة يحبها.. بعدها راح يتزوج وينجب ويروج ـ فى الخباثة ـ أن الزواج ما هو إلا إراحة عضو على حساب بقية الأعضاء. بعدها طلق زوجته لسبب بسيط ـ هكذا أجزم لى ـ أنه أبدا لم يستطع أن يبكى على صدرها.

أخبرته وأنا أضحك أن أهم أسباب الزواج فى المرحلة القادمة التى حتما ستبكى كل الرجال لأن النساء بكين من قبل بما يكفى، هو أن يكون للمرأة صدر "فول أوبشن"

ArabWorldBooks.com

يبكى عليه الرجل ...أحمد الله أنه تم استثنائى على نحـو وآخر..

فى ذلك النهار لم أجد أحدا أبكى علـى صـدره فبكيـت على صدرى ...

ArabWorldBooks.com

ولد بعربة وحمارين

اليوم أجازة من جلسات الإشعاعى، والنهار مثل أى نهار لا يحتمل أكثر من فنجان قهوة فى شرفة تطل بترف غير مسبوق على حديقة غناء، تشبه حدائق حكايات ألف ليلة وليلة، أما السماء ففى حالة تواطؤ مع شىء ما فى نفسى لكى يمر اليوم بسلام وكفى. صرت اتعامل مع الحياة ضمن وحدات زمنية صغيرة لا يتعدى زمن الوحدة اليوم الواحد. هدوء ونوم وطعام بسيط وقدر من الهواء النظيف وكثير من الأفكار.. قراءة أو كتابة أو تلقى محادثات تليفونية من الاهل والاصدقاء..حالة من الود البسيط مع حياة غير قابلة للقسمة على إثنين..

والأحداث على شاشة التليفزيون على حالها من العنف والقتل والضرب المنظم من جنود الاحتلال فى فلسطين والعراق. لم أعد أستطيع التفرقة بينهما. سأستثنى كل أشكال الحسرة والأسى على عمر

ArabWorldBooks.com

يستنزف سريعا بين أشكال صراع ضارى، تتبدل أرديته وأثماله بين أبيض وأسود وبال وسيكام.

السيد الطويل رجل الأمن الذى يجلس فى مقدمة الحديقة ووجهه على الشارع لا يحرس شيئا.. المربع السكنى ليس فى حاجة ماسة إليه فأغلب مالكى الشقق فى غيبة كاملة عنها، هو يحرس فقط المقتنيات. أوهم نفسه بأن الجلوس فى مقدمة الحديقة يجعل المربع السكنى كاملا تحت السيطرة. طوله الفارع وسمرته الداكنة يذكرنى بعفريت مصباح علاء الدين. ربما يمنى نفسه بمصباح آخر غير هذا المضاء بنهار فاقع يغريه دائما بألا يبذل جهدا لمتابعة ما خلفه.

أشك أن الكهرباء تصل مسئول الأمن وأدواره العليا. منطقة المخ منطقة غير آهلة بشيء له قيمة سوى التفكير فى مرتب الشهر ليرسله لأمه أو زوجته فى الفيوم.. أعطانى "مرعى السباك" فكرة كافية عن شكل الحياه في غرفة ينام فيها أكثر من عشرين شاب.. وعلى عقلى أن يبذل جهدا مضاعفا ليأتي بما تبقى من صور ونيجاتيف وعفاريت..جاءني أكثر من مرة لإصلاح ما تركه مالك الشقة من أعطال في السباكة والكهرباء. بدا شخص مريح على نحو ما، لا يرسل بنظرات خارج إطار ما يعمل، ثم يترك المسألة المادية دائما لتقديرى الشخصى. يذكرنى فى معطفه الكاكى بمخبر الأفلام البوليسية .

الشارع العمومي يهدأ نسبيا بحركة دائبة لعجلات ناقلات وشاحنات ضخمة تتحرك صباحا ومساء وعصرا وظهرا وليلا وقريبا من الفجر. الطريق أمام البيت مفتوح في آخره على الطريق الصحراوي السريع للأسكندرية أو مرسى مطروح أو ليبيا. والشاحنات مثل عمارات ضخمة تسيرعلى الأسفلت.

اليوم هو الجمعة وهو الوحيد الذى تهدأ فيه دماغى من ضجيج الشارع ..مشهد سيارة ضخمة تحمل خلاط

رمل مرعب أو "عجانة" بحجم عمارة يعد مشهدا عاديا. أحيانا أشفق على ساكنى الطوابق السفلى، كما أشفق على المارة والسائرين والسيارات المركونة على الجانبين.

يراوحنى احساس بأننى أتحرك فى المدينة باعتبارها منفى .. أو سجن مفتوح غير قابل لتدخل السجانين، يتركونك لعوامل البيئة تقمعك وتسحقك وتحولك إلى تفصيلة صغيرة من تفاصيل المكان، أو تدعك لتأكل نفسك بنفسك..

فنجان القهوة فى الصباح بمقدوره أن يختزل مراحل كثيرة من الحلم بعالم آخر.. تعبت من الترحال إلى مدن هادئة ثم سرعان ما تغزوها عناصر القبح والضجيج والعنف.

النهار تستبيح بكارته سيارات الميكروباص المتجهة إلى القاهرة، فضلا عن سيارات الكارو وحميرها والبحث عن علب الصفيح والكرتون وبعض نفايات خاصة لسكان المدينة فى سلال القمامة الحديدية..

حتى الجرائد التى لا تصل إلا نادرا لا تفصح عن شىء جاد آو جديد.. كلها مثل بعضها.. ولا من جديد. كلها مستهلك ومعلن وراقص ولاعب و زائف ومروج ومروض ومسطح ومشوش وغير سار وغير مبهج. ينفيك ويبعدك ويهمشك ويوخزك ويوجعك ويسجنك ويحاصرك، وكله سواء. حتى التليفون الذى غامرت فى دفع قيمته سريعا من أجل الكمبيوتر والنت والفاكسات والإميلات كشكل حمائى من عناصر الملل والضجر والعزلة، ليس بعيدا عن الطرق السرية للحزن والسأم.

الشاحنات الضخمة تنقل منتجات ألبان وألمونيا وبلاستسيك وبسكويت ورقائق بطاطس بطعم الجبنة وطعم الشطة والليمون والكباب وغيره..يختزل نهار المدينة عناصر انهيار الاقتصاد القومى..

القادمون عبر التليفون يصدرون نفس عناصر الضجر والسأم الخاصة بهم، أو يرغبون فى الوقوف على آخر آلامى ومراراتى ربما للبحث عن مثير ولو صغير لفعل شىء مغاير يحفزهم على كسر جوانب الشرنقة..

ArabWorldBooks.com

باستثناء صوت أمى وصوت اختى لا يحدثنى أحد يعيد إلى ثقتى فى النهار أو حتى فى الليل.. حتى بناتها الصغيرات اللائى صرت أراهن ثلاث مؤامرات صغيرة على العقل والروح والقلب، لكنهن أحيانا يصبحن قادرات على إنتاج الضحك والصخب والبهجة حين ياتين إلى المدينة.

وجه الولد راكب العربة الكارو وهو يفتش فى صفائح القمامة الحديدية والمثبتة فى أعمدة الكهرباء يتوخى الحيطة والحذر. ترك العربة فى منتصف الشارع غير عابىء بالحمارين من سيارة مسرعة وقفز داخل صندوق القمامة. وسريعا عبر الشارع وركب العربة وقاد الحمارين وهو يطلق أغنية وصفارة وكأنه يستفز صمت المكان وسكونه..بحث بعينيه عن بشر فى المدينة التى تبدو خاوية على عروشها فلم يجد، الامر الذى اغراه بمزيد من الأغنيات والصفير المنغم.

راق لى المشهد فرحت اتابع الوهج الجميل فى صباح يعلن عن اختلافه الواضح بولد ريفى وعربة كارو بحمارين وبعض الاغانى والصفارات.

وفى لحظة رأيت رجل الامن ـ عفريت المصباح ـ ينقض على الولد ويقبض عليه وينهال عليه صفعات وركلات ولكمات وكأنه أحد جنود الاحتلال الذين نراهم فى العراق وفى فلسطين على شاشات التليفزيون، والولد يصرخ ويبكى ومن بين فراغات غير منظورة على الاطلاق يخرج بشر قليلون فى محاولة لتخليص الولد من قبضة رجل الأمن الطويل عفريت العلبة أو عفريت المصباح.

لم أشعر إلا وأنا أضع نفسى فى أى ثياب وأهرول على السلالم لأخلص الولد من قبضة العفريت.

بدا صوتى محبوسا إلا أنه ناهض ليخرج ويصرخ فى رجل الأمن الذى يقدم لى التحيات كلما مررت أمامه وتعد له أمى كوب الشاى مع ساندويتش. حذرته من استمرار قبضة يده على الولد وتشبثت بالولد لأخلصه وظهر رجل نحيل بملامح طيبة. هو الآخر انحاز لفكرة ضرورة تخليص

ArabWorldBooks.com

الولد من فك العفريت..كان منطق العفريت غريبا ومتحايلا بأنه رأى نفس الولد ليلة أمس وهو يسرق بابا زجاجيا من أبواب العمارات. الدموع الساخنة للولد تتوسل لى وللرجل النحيل. كنت أبدو للآخرين شديدة الإصرار على تخليص الولد من مخلب رجل الامن على الرغم من شدة الانفعال التى سحبت صوتى وأجرت بعض وأنا أجتهد لإخفاء كل هذا.

هددت رجل الأمن بأننى كاتبة ولن أقبل إلا بتخليص الولد. والعفريت يصر على القبض على الولد وإيداعه زنزانة بشركة الأمن الخاصة لتى تحرس المدينة. كنت أدرك على نحو ما أن الولد سوف يلبس قضية سرقة أحد أبواب العمارات التى سرقها آخرون ربما يعرفهم جيدا رجل الامن ويرغب فى تسديد خاناته الفارغة.ودموع الولد تسبق كلماته التى تؤكد أنه لتوه قادم من الفيوم وأنه بعد هذه الواقعة سوف يذهب الى بلده ولن يعود..

أخيرا استقر الرأى على الذهاب به إلى مكتب الأمن الذى يبعد مسافة كبيرة عن طريق بيتى .. سرنا جميعا وكان الولد مصرا على التشبث بالعربة والحمارين، نفس حرص العفريب على أنها إحدى أدوات الجريمة وليست مجرد أدواتة لأكل العيش.

سرنا جميعا وداهمنى شعور بأننى ورطت نفسى مع حفنة من الذئاب البشرية الذين يعيشون تداعيات فقر وغباء وعته ، يرونها الحكمة العظيمة والرائعة.. ان لم تكن ذئبا اكلتك الذئاب.. فقرر كل خروف أو ديك أو حتى كتكوت أن يكون ذئبا على الآخرين خاصة الأشد بؤسا وضعفا وأقل قيمة وقامة عنه..

ما هذا الاستعلاء الذى تبلوره نظرة فوقية.. أنت تتحدثين وأنت تطلين من برج عاجى...كم هائل من التناقضات تدفعنا دفعا فى مفرمة الحياة ولو كنت هكذا لما كنت الآن أسير إلى جوار رجل أمن بائس وولد ريفى صغير

ArabWorldBooks.com

يتشبث بعربة كارو وحمارين وبعض النفر الذين أشفقوا على الولد مثلى وقد يتراجعون إذا ما طال بنا الطريق..

بدا أننا كلما أوغلنا فى الطريق إلى مكتب شركة الامن الخاصة تتكشف لنا تلك المساحات الممتدة بعمارات واقفة مثل جنود فى معركة وهمية.. كلها فارغة على نحو وآخر أغلب الشقق والعمارات مغلقة على الفراغ والغبار والصمت..

كان الولد يبكى مقدما مبرراته والتى يجدها عفريت المصباح واهية على نحو كبير، وأنه هو وحده صاحب الحقيقة المطلقة مثلما توهم ذلك فى استعمال سلطته مع الولد والحمارين.. حكى الولد كلاما يقوله الكبار والصغار. أنه والده سافر العراق منذ سنوات ولم يعد وهو الذى يعول أمه واخوته وقد جاء وحده الى المدينة لكنه وفقا لما حدث سيغادره فجر اليوم وربما الآن مباشضرة حين ينجو بالعربة والحمارين، فهما عهدة المعلمة التى تبيته مع أربعين طفل مثله فى شقة من شقق الإثنى عشر .

عفريت المصباح هو أيضا مقهور ويعيد انتاج قهره فى علاقته بما هم دونه وهذا يتأتى تحديدا ما بين الثامنة صباحا والثامنة مساء وما بعد ذلك ينزع ثيابه ويتحول ـ ربما ـ إلى مخبر فى مكان آخر أو خادم يؤدى خدمات جليلة لبعض الساكنين الذين يتعاملون مع المكان كجرسونيرة لينالولهم الطلبات من بيرة لـ "مزة " للحم مشوى أو سمك مقلى من المولات التى انتشرت على جانبى المدينة.أو تجده وقد تخفف من ثيابه وراح يغسل سجادة أحد السكان بخرطوم الحديقة.

كل هؤلاء من الفيوم..أقرب محافظة لأكتوبر.. الطلبة والعمال والعاطلين وسائقى الميكروباصات والتوكتوك والنصف نقل وأطفال صغار يعملون فى النظافة والبحث فى سلال القمامة عن أشياء بعينها..جميعهم يأتون كل بحفنة

ArabWorldBooks.com

أحـلام وأوهـام. الجـانى والضـحية.. الـذئاب والنعـاج.. ثـم تتحـرك التـداعيات ليحـدد كـل مـنهم موقعـه فـى المدينـة حسـب قدراته..

صوت شاحنات كبيرة مثل عمارات ضخمة تسـير علـى الارض، تنقـــل منتجـــات ألبـــان وألمونيـــا وبلاستســـيك وبسـكويت ورقـائق بطـاطس بطعـم الجبنـة وطعـم الشـطة والليمون والكباب وغيره..تختـزل نهـار المدينـة وترجهـا رجـا وتفتت الصمت أشـلاءً على طريق الاسـفلت.

فى صباح اليوم التالى رأيت نفـس الولـد يسـير راكبـا العربة بالحمـارين ويطلـق صـفاراته الغنائيـة ويصـوب عينيـه على سـلة القمامة المعلقة على أول الحديقة.

ArabWorldBooks.com

يوم مغاير ....

ArabWorldBooks.com

سأحاول اليوم أن أتعامل مع نفسى على أنى امرأة سليمة، عفية نضرة، طيبة وشريرة متسامحة وغبية عدا بعض الذكاء.. لا تحمل أى مرض كما لا تحمل أى تميز عن بقية النساء..مفعمة بروح المرح والكآبة أحيانا.....

سأعد اليوم "هدنة" بعد "المعركة" التى دخلتها مرغمة دون اختيار ونتج عنها تشوه فى الجسد وكسور ورضوض فى الروح والنفس وربما فى العقل.... ليس لأننى ضعيفة ولكن لغياب بعض الصديقات والأصدقاء الذين كنت أراهن بهم على المستقبل، بدا غيابهم بمثابة قطع متعسف فى مشهد سينمائى رومانسى منساب فى

اتجاه رقيق وناعم فراشات وزهور. لكن القلة التى راحت تتكاثر شيئا فشيئا ساندتنى عبر كتابة وزيارات وتليفونات ، عمقت فى داخلى ارادة الحياة ، هذا غير ما طفرت به الأرض بشكل سحرى بوجوه جميلة دفأت حياتى وأعانتنى كثيرا على أنجز محاولتي الدائبة للخروج من بين مخالب الوحش.. أغلبهم أخوة وأشقاء عالم الإبداع والإعلام والفكر والثقافة.. هذا العالم الذى دخلته باختيارى فى بداية الثمانينات من القرن الماضى وتكشف لى أنهم صلة القرابة الحقيقية، وأننى فرد فى قبيلة مترامية الأطراف..

لن أراهن على الذين يرغبون فى أن يدخلونى فى متاهاتهم.. سأراهن على كائنات أخرى مثل الأشجار والأنهار والقطط والعصافير والنباتات.

سأتعايش مع خوفى عله يخمد ويترك لى مساحة من التنفس،لأستيقظ فى أى صباح لأفتح شيش نافذتى وأردد فى نفسى...." ..الله .. مازلت أحيا..
" الحياة جميلة وأنا متشبثة بها ولابد أن نناضل من أجلها.."
حين سمع أحد الأطباء وهو يمعن فى قراءة أحدى الآشعات هذه الجملة نظر إلىّ بعيون جامدة ولسان حاله يقول..
ـ اذا كان أنا ـ يفرط فى إبداء سلطة الأطباء ـ موش متشبث بها..

سأفتح النت وأدخل على جريدة الحياة وأجمع كمية مقالات للكتاب الذين أحبهم و"أسيفها" توطئة لقراءتها فيما بعد.. رئة أخرى للتنفس ..

نزلت فى السابعة صباحا وسرت وسط مربع الحدائق المحدودة بين العمارات وكأنى أسير فى مصنع أوكسجين.. خذلنى على نحو ما علم الأطباء فصرت أقاوم

ArabWorldBooks.com

"الخبيث" بالأوكسجين ورياضة التنفس الصباحية كما أقاومه بالغذاء والماء والشاى الأخضر رغم ميوعة طعمه وكذلك البردقوش وحرفة طعم الثوم والبصل وحريفة الكارى والكركم والقرفة والحلبة والبقدونس والسمك وبهجة الجزر والخس وتأمل عصافير الصباح التى تحط فى شرفتى ثم تتقرب لى وتدخل البيت وأحسها مثل جيران جدد..

أسير لمدة نصف ساعة غير منقوصة. أحرق كما هائلا من التوتر الذى صار قانونا للحياة..

سأصعد شقتى لأغسل المواعين وأنظف المطبخ وأعد وجبة ساخنة.. وأقرأ وأكتب وأتأمل الحديقة الغناء التى أطل عليها وتستفزنى صديقة لى فى كل مكالمة لأترك هذا الجمال ـ ليسهل عليها زيارتى ـ وأعود إلى القاهرة حيث العادم والتلوث السمعى والبصرى والضجيج ، لأن أصدقائى وهم فى طريقهم كل صباح لتحقيق طموحهم المهنى والاجتماعى والثقافى سوف يصير بمقدورهم السؤال عنى..

يخطر لى أن أتساءل وأنا أعد الوجبة سهلة الاعداد .. عملا بكلمة د. عمر حلمى طبيب الكبد .. "الطعام الذى يسهل اعداده يسهل هضمه .." أغلب الأطباء غير مثقفين، يرضعون الطب فى سرنجة معدنية، مجرد تقنيات حديثة منزوعة من كل ما هو شخصى وانسانى.. كل المرضى أمامهم لحم معطوب.. مع ان كل جسم وله قانونه الخاص. ينبهنى يوسف غطاس أننا عالم ثالث.

متى أكف عن كل هذه المهاترات لأصل لقدر ولو ضئيل من الهدوء ؟.... مازلت أشعر أن حياتى مدى فسيح تتنازع فيه الرياح والغبار على رؤوس الأشجار.

أفتح شيش نافذتى على مساحة من الخضرة تعتنى بها نانسى الفلسطينية تلك الفلسطينية الجميلة والملتاثة والمهووسة بنفسها.. لم تكلفنى عناءً لأكرهها، يكفى فقط أن تسب عامل الحديقة أو موظف الأمن وتهدده فى رزقه ورزق أولاده لتستنفر فى نفسى طاقة

كراهية وعداء.. قال لى الجناينى الصغير حسن وقد قطف لى بعض الزهور ..

ـ والنبى ياست كلميلى الولية دى.. أحسن ح تجطع عيشى.. ما جدرتش على اسرائيل ..جاية تجدر علينا..

لعبت نانسى بمهارة على انشغال المصريين بحياتهم الشخصية عن رعاية الجمال، كل لا يعنيه خارج حدود شقته، وهى الوحيدة التى تتصدى لرعاية الحديقة، ليس لعشقها للجمال، ـ من يعشق الجمال تمتلىء روحه حنانا على البشرـ لكن من أجل خلق وهم سلطة الوطن المفقود، وربما تنكيلا بمن له وطن، بنفس زعمها الباطل وقبض الريح أنها زوجة لمسئول أمنى كبير.

أعددت فنجانا من القهوة ... منعنى الطبيب من كل الأطعمة اللذيذة والمشروبات التى كنت قد أدمنتها مثل عصير البرتقال والجريب فروت والشاى والقهوة. أخبرنى أن السرطان الذى يسكن جسدى لا يجب أن أحقق له مزيد من الترف والرفاهية ..عناصر كافية وبيئة مناسبة لأن يبقى ويستقر ويتكاثر..ظللت أعمل بتحذيراته من أكل اللحم والفواكه ومنتجات الألبان والأجبان، لكننى وبعد وقت رأيت أن المسألة زادتنى كآبة وأن خلايا جسدى نفسها لها ذاكرة مع الطعام الذى تعرفه..اكتشفت أيضا أننى لكى أحافظ على الحياة لابد أن ألغى الحياة..

بعيدا عن حالة التسامى التى أتمثلها دائما سأمارس اليوم قلقا عاديا مثل كل انسان بتر جزء حيوى من جسده.. الحياة تفلت من بين يدى امرأة فى منتصف العمر، والزمن والتاريخ والطبيعة والموروث مازالت كلها تركز عليها كقطعة لحم يأكلها رجل ويمسح فمه بورقة كلينيكس..

سأحدث يوسف غطاس فى التليفون وأسأله عن أمه وأمر عليها بالسيارة لنشترى احتياجاتنا من سوق السادس. بعيدا عن سوق السابع الذى يتعامل مع الناس

معاملة السائحين، عرب وأجانب انتشروا فى المدينة لانتشار الكليات والمعاهد الخاصة والمصانع.. ثم أعود وأجلس إليه لأسمع حكاياته التى لا تفرغ.. قالت أم يوسف ذات مرة : منهم لله ..غلوا علينا الهوا...

يدرك يوسف على نحو ما أننى أرغب فى سماع حكاياته التى يسر لى بها .. نوهت أمه أكثر من مرة على ضرورة أن أحفزه على الزواج..أشياء كثيرة لم يحدثنى عنها.. حدثت صديقتى المسيحية لأفاتحها فى الزواج منه فأخبرتنى أنها خطبت..

اليوم ايضا سأقاطع التليفزيون .. نشرات الأخبار تصدر لى كآبة منقطعة النظير عبر حلقات العنف الدائر فى فلسطين والعراق وسجن أبو غريب وسجن جواتنامو ..أفلام رعب "لايف" يومية تكرس لقمع الناس ليختفوا حتى فى جلدهم....

سأقاطع أيضا تشانل تو للأفلام.. أنفق وقتا وجهدا لأحظى بفيلم غير أفلام الحروب والآكشن والرعب والفزع وثراء التفاهة والرفاهية المفرطة التى تصيب بشر العالم الثالث بالقهر .بدا أنهم يفعلون كل شيء وليس لنا إلا الفرجة، صرنا مجتمعات ، هم ينتجون الأطعمة لنأكل، ينتجون الثياب لنلبس، ونحن مجرد مستهلكين نتفرج عليهم وهم يأكلون ويعيشون رفاهية لذيذة،ويحبون ويرقصون ويتزوجون ويمارسون الجنس بينما نجلس لنتفرج فقط..

سأجمع صورى وصور العائلة وشهادات التخرج وشهادات التقدير وأعلقها على جدران الحمام نكاية فى حياة سقيمة،عشتها تحت أمل أن تكون لها معنى..

سأحدث أمى التى تحسب على الملائكة أكثر منها على البشر علها تكون قد استيقظت مبكرا. حين أعود

إلى البيت سأشرب شايا أخضر ..فى "مج" كبير .. حجم عائلى وأكون قد جمعت بعض الأزهار والورود من الحديقة المقابلة للبيت وأضعها فى زهرية زجاجية ترينى الماء والجذور وهى تنبت.

سأدع الكاسيت يعمل بموسيقى راقصة سأنهض لأرقص لأرى جسدى طيعا دون وجع أو ألم،رغم أنف المرض ..الرقص يمنح الجسم بهجة غير عادية. لم أسمع مرة عن راقصة مرضت بمرض خطير.. كآبة الروح يدفع عنها الجسد الفواتير كاملة ..

تأتى الموسيقى الكلاسيك.. النداى السحرى لموتسارت.. شجن يأخذنى لاستحلاب بهجة مفقودة، وأنا أرقص رقصا يشبه الباليه فأجوب أرجاء البيت ..بهجة تتسع بى كدوامات بحر ..

صرت أعد اليوم الواحد خلية حية، أو وحدة زمنية لحياة كاملة ليس موصولا بما قبله ولا مقطوعا عما بعده .. أرى فيه كل الأزمنة وكل الفصول. الشتاء والصيف والربيع والخريف وأعيش كل الحالات.. البهجة والحزن والفرح والبكاء من شدة الألم.. أرى المخلصين والشرفاء كما أرى الغادرين والخونة والفاسدين، فى الوقت الذى أدرك على نحو ما أن الألم يخجل ويتوارى من مقاومتى وصمودى فأجلس لأكتب أو أقرأ أو أحدث أصدقائى وصديقاتى فى التليفون ونضحك ونحكى ونشكو ونبكى ونعرف ونسخر ونرثى أو نبارك. أدرك أن هذا المرض يخشى الحب، فيفر حين يجدنى محاطة بحب الأصدقاء ورعايتهم.

يواتينى صوت أمى فى التليفون أن أختى تشاجرت مع زوجها كما تواتينى ثورة إحدى صديقاتى أن زوجها لا يسمعها "كلام حب" .. تكاد مرارتى تفقع هى الأخرى لتضاف لكم الأعضاء التى تعطلت وأحاول إصلاحها.. هموم

ArabWorldBooks.com

أختـي وصـديقاتي تـرف لا أسـتطيعه..لم يعـد لـدى أدنـى طاقة تبذل للتهدئة بأن هذه المشاجرات هي العادم الـذي لابـد أن تـتخلص منـه العلاقـة الزوجيـة مـن وقـت لآخـر.. لا تفهم أمي وربما تفهم صديقتي وتدعى العكـس .. أشـرح لهن أن السيارة وهى تسير تخرج العادم الناتج عـن حـرق الموتور للطاقة .. بدهيات يفتقدن القدرة على فهمها..

فى الجريدة حادثة لرجل فى أبو مزار دخـل بيتـا فـى الليل وذبح أربعة من أهلـه ومثـل بجثـثهم وقطـع أعضـائهم التناسلية.. وجدت ملقاة ومتناثرة على الأرض..

سـأنزل اليـوم لإصـلاح شـاكمان سـيارتى "فلـة".. سـأذهب مباشـرة للمصـنع فـى المنطقـة الصـناعية.. الميكانيكيون فى أكتوبر مجرد صبية يستكملون الخبرة من العمل في سيارات النـاس .. سـرت وراء الأسـهم.. مطـابع الأهرام ثم الأخبـار ثـم يسـارا مصـنع الشـاكمانات.. مصـنع فخم كأنه قلعة تحيطها الأشجار والأسوار الحديدية من كل جانب.. فتح حارس الأمن البوابة لسيارتى وقابلنى المـدير المسـئول ليتـولى المهمة..أجلسـنى فـى صـالون كبيـر وطلـب لـى شـايا ثـم خفـض صـوته وهـو يسـألنى وينظـر للسيارة..

ـ تبيعيها؟

بدا منسحبا ومهزوما ومتراجعا وهـو يحـاول أن يأخـذ إجابتى، ليس على محمل الجد.

جلست أقرأ كتابا أحرص على وضعه فى حقيبة يدى، عـن مقاومـة السـرطان بالتغذية..أصـدرته مؤسسـة سبيروس قسطنطين موروس وهى مؤسسة خيرية تهدف إلـى خدمـة مرضـى السـرطان عـن طريـق أنشـطة بحثيـة ونقل الخبرات والمعلومـات فـى مجـالات التغذيـة الطبيعيـة والزراعـة العضـوية. أسسـها سـبيروس قسـطنطين وهـو مصـرى الجنسـية يونـانى الأصـل، بـدأ حياتـه فـى صـناعة الغـراء والبلاسـتيك وحقـق نجاحـا مبهـرا علـى المسـتوى المحلى والعالمى وأصبح مصنعه أكبر مصانع الأكريليك فى

الشرق الاوسط، عشق الطبيعة وحين هاجمه سرطان الجلد ظل يبحث فيها عن العلاج المناسب مسترشدا بأفضل ما نشر من أبحاث فى مجال الطب والطب البديل وكله أمل وثقة أن الله سيساعده فى قهر المرض، حتى حدث فأنشأ هذه المؤسسة من أموال مصانعه.

لاحظت أن الشاب الذى أتى لى بالشاى لا تبدو عليه سمات "فراش" مصنع للشاكمانات وضجرت بعد ساعة، والعمل لم يبدأ بعد في سيارتي ، فتحركت في اتجاه الحديقة من أجل كم من الأوكسيجين. لاحظت أن نفس الشاب ينزع عن الأشجار بعض الأوراق الصفراء فاقتربت منه وسألته عن معلوماته فى الزراعة، فرد بتلقائية وكأنه فى حالة دفاع عن النفس..

ــ أنا حاصل على ليسانس حقوق ودبلوم قانون دولى..

سألته عن الشجرة التى ينزع عنها الأوراق اليابسة قال..

ـ اسمها بنت القنصل

لم أدهش كثيرا فأغلب موظفي الأمن والخدمات والفنادق والكافيتريات والمولات فى المدينة مؤهلات عليا.. تعلموا فى الريف ونزحوا للمدينة بحثا عن عمل.. خليج جديد وهجرة أخرى، لم أشأ أكمل سؤالي حتى استطرد فى يأس..

ــ طموحى إتقتل ..لى عشر سنوات مع صاحب المصنع وهو يريدنى فراش وجناينى وساعى وعامل..على فكرة صاحب المصنع بلدياتى..

بدا لى المصنع مثل سجن قطاع خاص والشعور بالسأم مثل غصة أو شوكة تقف مستعرضة فى الحلق..أخيرا رفعوا السيارة وبدأوا في العمل بها.. كرهت احتياجى للمصانع ـ السجون ـ الصغيرة والكبيرة التى انتشرت مثل سرطان فى المدينة يأكل الأخضر والأخضر والاخضر..

ArabWorldBooks.com

دخل كم هائل من العصافير إلى البيت وراحت تتقافز بين الزقزقة ونغمات الناى السحرى لموتسارت. ثم طفرت فى رأسى صورة ضرب العصافير بالبنادق أمام سور حديقة الحيوان بعد ظهور أنفلونزا الطيور. توجست للحظة ثم اقتربت منها ولم تطر كعادتها فسعدت بأن اليوم حقا يوم مغاير وأننى امرأة مثل كل النساء .. طيبة وشريرة وقلقة وهادئة وممرورة ومبتهجة.

ArabWorldBooks.com

أحـــــلام

لا أدرى ما الذى يحدث.. مضى شهران على العملية ويتجدد الألم والوعكة بعد جلسة الكيماوى.. ومازلت أحاول أتجاوز الألم بالقراءة ومشاهدة السينما وبرامج التوك شو،والاقتراب من الأصدقاء. يتلوها حالة من الوهن والهزال فأستسلم للنوم ربما يستعيد الجسد بعض توازنه،

فأحلم أننى أسير بسيارتى فوق جبال من الرمال الناعمة وتتعثر بى الطرق وأدخل ممرات أظنها تحدث انفراجة فى الطريق فإذا بها مسدودة بكم هائل من الرمل، أظل أحفر وأحفر لأجدني فى ممر آخر مسدود أيضا بالرمل..

حتى النوم صار مثل كوابيس الواقع.. كرهت أخى مجدى فقد صار يرتب نفسه لمرافقتى فى جلسة الكيماوى.. كدت ألقبه بمجدى الكيماوى..بالأمس انتظرنى بسيارته أمام المستشفى.. أشفقت عليه من المجىء لأكتوبر والعودة وتكرارهما .. تجاسرت رغم الهزال وصرت أركب الميكروباص، وأنتظره مجدى أمام المستشفى..

مجدى على النقيض من عاطف تماما. صموت مغلق على ذاته، يذكرنى بحضرة المحترف موظف نجيب محفوظ ..الحياة لديه تم ترتبها فى نسق واحد. لم يتجاوز ذهنية الموظف التقليدى وليس لديه أسبابا للتجاوز. أجد صعوبة فى التواصل معه وليس ثمة لغة تجد طريقا على ألسنتنا .. يمسك بجريدة ويظل يقرأ ثم يستأذننى ويذهب للصلاة ويتركنى وحدى ليتوحد فى مسجد المستشفى. النساء الوحيدات دون ازواج يحسدننى لأن رجلا بمرافقتى فى جلسة الكيماوى.

أحسب حسابات الود الصارمة مثل صرامة فم أخى أن الواحد والعشرين يوما بين الجلسة والأخرى لابد أن تسفر عن بعض أيام أسترد فيها شيئا من حيويتى .. أظل أكابد عتمة أنهاك الجسم ووغيمات وسأم الرغبة الدائمة فى التقيؤ.. ثم مرارة الحلق وجفافه وتقيح الشفاه ومرارة الفقد واللون البنفسجى القاتم الذي يزحف على الأظافر فتبدو مثل أظافر أصابع عامل استورجى..

سافرت سهام بيومي وشغلت شوقية بإبنها وهالة بعملها وغيرهن بأسباب أخرى والفقد واحد.. لكن بقى معى شعبان يوسف ونادية الضحاوى وصفاء عبد المنعم

ArabWorldBooks.com

ومحمد مستجاب (الإبن).. وجاءوا أصدقاء جدد مثل سلوى عبد الباقى وطنط وداد متـرى ومديحـة عمـارة وأحمـد الخميسـى وسـمية رمضان وفاتن محمـد علـى وسـلوى محيىّ الدين ونور الهدى زكى..

أكـد يوسـف غطـاس علـى أهميـة الاكثـار مـن النـوم لالتئام أنسجة الجسم والأعصاب التى قطعها الجـراح فـى العملية مع الورم، ولاستعادة الانسـجام والهـدوء النفسـى أكثرت من المهدئات لتدخلنى فـى "مـود" نـوم..لكننى لـم أكن أعلـم أن النـوم هـو الآخـر لا يقـل فـى كابوسـيته عـن كوابيس النهار..

حلمت أننى واقفة فى شرفتنا وفى يدى ثلاثون جنيها طـارت منـى كلهـا .. ورقتـان، إحـداهما بعشـرين والثانيـة بعشرة. الأولي دخلت شـرفة عـم شـفيق البقـال والثانيـة دخلت شرفة أم عطيـة القبطيـة والتـى تحكـى دائمـا أنهـا فى مرحلة من عمرها كانت زوجة لمسـلم. جئـت بالثانيـة ووجدت صعوبة مع الورقة الأولى.

كـان عـم شـفيق مـازال نائمـا هـو وأسـرته متعـددة الأفراد.. بينما وفى هدوء أدخلتني الخادمة الشرفة وأتيـت بالورقـة ذات العشـرين جنيهـا. أخـذتها حتـى دون أن أنظـر للوجوه والأجساد التي تلفها رائحة النوم.

ومـا كـدت أصـعد لشـقتنا بـالورقتين حتـى وجـدت عـم شـفيق البقـال فـي الخلـف يتهمنـي بـأنني سـرقت مـن شـقته عشـرة ورقـات بمائـة جنيـه، كـان يضـعها علـى الكومودينو، وأن الخادمة أكدت له أنهـا لـم تـر تلـك الورقـات ولكنها رأتني هذا الصباح داخل الشرفة.

لم تشفع لي العشرة الطيبة والطويلـة مـع عائلـة عـم شفيق البقال فـي عمـارة واحـدة فقـرر أن يـأتي بالبشـعة وهى طاسة كبيرة سوداء يشعلها على النـار وعلـىّ لعـق

ظهرها، فإذا كنت بريئة لن تؤذيني النار ـ هكذا يظن ويدعى ـ وإذا كنت متهمة فبالتأكيد ستحرق لساني.
قال أنه سوف يمارس هذا علىّ والخادمة في آن واحد ..

رفضت صيغته الغبية في البحث عما ضاع منه والمهينة لحالة الرقى والتحضر التي أحرزتها وابنته وفاء زميلتي فى الجامعة التي تفرط في الزينة واللهو وتبديد الوقت طول العام وتلجأ لي لأذاكر لها في نهاية العام.

تركنى عم شفيق وكان كعادته منذ عرفناه يبالغ فى ابراز فحولته أمام نساء العمارة وهو يصر على أن يتحرك فى العمارة بسرواله الأبيض البفتة وفانلته القصيرة وأمى تسخر منه وتدعوه بالقرد الويشى، بينما تبتسم له غالبية الجارات ويظهرن كاشفات أثدائهن ويتابعنه وهو يقطع أرض الشارع بقوة أسد غضنفر.

فى الحلم كان عم "شفيق" جارنا بنفس السروال البفتة والفانلة الحمالات يبالغ فى إ بداء فحولته. يظل صاعدا ونازلا على السلالم وعلي لسانه لهجة تهديد.

لم آبه به وأخبرته أن عليه أن يفعل ما يشاء وأغلقت باب شقتنا فى وجهه.

الغريب أن الرجل حين لجأت إلى ابنته ورحت أذكرها بأيام الطفولة وجدتها وقد فقدت الذاكرة ولا تعبأ بشىء إلا بثديها وقد استعارت حمالة صدرى. كنت آمل أن تلعب دورا لتهدئة الخواطر بيني وبين أبيها. لم تكن ابنته وفاء مجرد بنت الجيران. كانت أكثر من أخت وصديقة. وما أن سمع الرجل كلام ابنته حتى انهال يوبخنى بأنه رآنى أكثر من مرة أسرق عرسان ابنته كما رآنى أسرق بيضة مسلوقة من على مائدتهم.

ArabWorldBooks.com

لم تتذكر وفاء شيئا من طفولتنا وصبانا، ولم تنصفني لحظة عند أبيها الذي يصر على أن أقبل الامتثال لطريقته الشعبية لكشف الحقائق. علىَّ إذن أن العق البشعة ليتأكد بأنني بريئة ولست مذنبة.

في الحلم حكيت لجارتنا أم عطية القبطية التي تسكن أسفل عم شفيق البقال فأكدت لي أنه "راجل ناقص وذيله نجس" وأنها هى المرأة الكادحة والتي تعمل تومرجية بإحدى المستشفيات لم يتردد في مراودتها عن نفسها والتحرش بها فى الطالعة والنازلة، فلا يتورع عن أن يدق عليها الباب فى وقت متأخر وهو عائد من خمارة "كاريوكا".. رصدت أم عطية أكثر من شاب في الحي ماتوا أو جنوا أو فقدوا أبصارهم بسبب الخمر المغشوشة التي يتاجر فيها أبناء "كاريوكا" ويدعمهم شفيق البقال..

حالة التشويش التى يؤسس لها محلول الكيماوى منذ الدقائق الأولى لا تعنى أحد..تعنى فقط أنني سأدخل فى غيبوبة تامة، أقاومها بالنوم فتتمازج الأحلام بالكوابيس ولا أستطيع أن آجد فرقا واضحا..

ArabWorldBooks.com

لغات مستحيلة

ArabWorldBooks.com

المبنى جميل ومنمق يشبه مركبة فضائية..أو مبانى الاحلام .. وأغلب الوافدين فقراء، وافدين من القرى والنجوع.. عيونهم مدلاة على الأرض تجرى نظراتها خلف خطوات الممرضات والأطباء على الأرض الجليدية..

وأنا صاعدة الدرج أدرك على نحو وآخر أن المركبة ستغلق علىّ نوافذها وأبوابها فأدور وكأنى فى جحر ضيق تنسحب منه نتف الضوء الباقية وتدب العتمة بديلا للنهار فيضيق بى الصدر والأفق ومجال الرؤية لكنى أتصالب وأواصل الصعود إلى قسم الكيماوى..

ينتظرنى شقيقى الكبير مجدى ينظر لى بابتسامة هادئة.. أتى به الواجب والضرورة . أمام العيادة أصررت على لقاء الدكتور داوود يعقوب. فى المتابعة يتركون المرض يتوزعون على الاطباء وبختك يابو بخيت، الاطباء صغار يتمرون على الطب فى أجساد الفقراء.. فئران تجارب لا اكثر. لم أستطع الجهر بهويتي ككاتبة وإلا فما الداعى لوقوفى فى الطابور مع خالتى أم اسماعيل القادمة من كفر الغلابة..

كنت أصر على انى أتعامل مع طبيب واحد .. حفظت اسمه كما حفظت ملامح وجهه التى تنم عن طيبة وانبساط . أغلب أطباء هذا القسم لا يبتسمون ولا تتزحزح عن ملامحهم برودة الصرامة. يتعاملون معنا كجثث محتملة لا يجب أن تبقى الذاكرة منهم شيئا.

طمأننى الدكتور داوود بأن الاشعة سليمة وأكرمنى بسخاء فى علاج ما بعد الجلسة للحفاظ على الكبد والكلى وقد دخل الجسم فى عراك مع الكيماوى الذى بدا بعد وقت كحليف متواطىء مع المرض لا مقاوم له.

أغلب الوجوه أعرفها جيدا .. نجلاء العريشية وهناء الاسيوطية ونها السكندرية.. وبعض الوجوه الجديدة..

لم أجد سريرا فارغا إلا إلى جوار "عواطف ".. شابة فى العشرين من منفلوط.. نظراتها المستريبة تستطلع بها درجات من الأمان وربما الأمل.. فعل بها الكيماوى ما فعله بالجميع. أتت اليوم بكآبة وحزن مقيم. حكت أن الدكتور طلب منها أشعة فوق صوتية على الثدى الآخر . طمأنتها أن هذا عادى وسيتكرر من آن لآخر للاطمئنان وليس للشك.

وقعت فى نفس المأزق من قبل، ولم ينقذنى من دوائر الوهم والفزع سوى كلمات يوسف غطاس. يشعرنى

طول الوقت أننى المرأة الوحيدة فى حياته وربما المريضة الوحيدة باستثناء أمه ورواد الصيدلية.. يشعرنى أيضا بأنه مسيح آخر على الأرض هبط عليها من كوكب آخر ليشفى الأمراض ويبرىء الأجساد من أسقام العصر وعلله، فضلا عن ذلك التفانى الذى يجعلنى أحيانا أدخل دوائر الشك والريبة وربما عدم التصديق. كلماته بلسم ونظراته رهان على الأفق القريب وربما البعيد. لا أنسي جملته الجميلة التى كدت أرفعها شعارا للمرحلة...

ـ ح نعديها يعنى ح نعديها..

طلبت منه أن يقرأ تاريخ عمه الذى حكى لى أن روحه تسكن جسده النحيل الرقيق، تناسخ أرواح.. أشفق على أى بشر يعيش حياة بشر آخر.. يجزم لى أنه سار إلى بيت عمه فى شبرا على الرغم من أنه أبدا لم يعرفه من قبل ، وصعد ودخل شقته ونام على سريره وفتح الجرامفون بالموسيقى التى يحبها ..

يدخلنى يوسف فى فيلم خيال علمى ولا تزعجنى النهايات..

"عواطف منفلوط" شابة، بؤسها يراكم فى قلبى طبقات من المرارة ... أحزننى حزنها. وانبرت قريحتى تحثها على التفاؤل والمقاومة..

نظراتها تؤكد لى بأننى أتحدث بلغة غريبة لم تسمعها من قبل ..

سألتها إذا ما كان الرجل الوسيم ذو الجلباب الذى كان معها وخرج ليدخن سيجارة فى الحديقة المجاورة زوجها، فنفت وأكدت لى أنه عمها الذى يربيها فى بيته مع ابنائه الذكور. رأيت فيلما عن امرأة كانت ترى كابوسا ليليا.. أنها معلقة فى نجفة فى السقف والرجال يتعلقون بثدييها ..نظرات عواطف سدت الفراغات التى رسمها سؤالى وتركتها وجلست على سريرى..

كان أخى مجدى يجلس إلى جوارى يقرأ الجرائد كعادته حتى تأتى الممرضة بزجاجات الجرعة فيتركنى

للألم والكآبة وينزل ليصلى ويمعن فى الغياب حتى يعود وقد مر وقت يكفى لأن تنتهى المسألة.. مجدى أحب أخوتى إلى نفسى لكننى أكره هدوءه وبرودة أعصابه..

الممرضة "غادة" حامل وبيدها الزجاجات.. بدت لى مثل فأر بلع برتقالة.. تبدو باردة الملامح. اعتدنا من طاقم الممرضات على البرود والملامح الصارمة وعدم التعاطف. يتعاملون معنا باعتبارنا أكوام من المرض المكثف، عليهن بتفكيكه إلى أجساد.. وما أن غرزت ابرتها فى وريدى حتى قالت:

ـ معلهشى ح تتألمى شوية..

طلبت منها أن تشد ستائر السرير التى تنفرط حولى لتجعل من المكان غرفة مغلقة . اختفى وجه هناء ووجه زوجها ووجه عواطف ووجه نجلاء ووجوه كثيرة وراح الألم والأسى كل منهما يأخذ مكانه فى نفسى..

أجزم أننى كنت أسمع للأسى وللألم وللحسرة أصواتا تشوش على صوت حلبة الصراع فى جسمى بين الخلايا السرطانية والخلايا المناعية. كنت أرغب فى سماع أى موسيقى غير هذا الضجيج الموخز والموجع..

وعلى الموبايل رحت أرسل رنات لأحب الأصوات الى قلبى.. أرسلت رنة إلى يوسف وجاءنى صوته الحنون يسأل عما إذا كنت أرغب فى شىء....

ـ رغبت فى سماع صوت بشرى فقط..

ظل يتحدث معى ويؤكد لى أن المسألة هانت..

دمعت عينى وأرسلت رنة أخرى لشوقية وشقيقى عاطف..قال لى كما قالت شوقية الكردى..

ـ أجيلك؟ ..

أكدت لهما أننى بخير..

عـاد مجـدى مـن الصـلاة واسـترخى علـى السـرير المجاور..والرغبـة فـى القـىء يتخللهـا حلـم بتقيـؤ كـل مفاسد العالم وقبحه...

حين فتح مجدى الستار رأيت الممرضة النحيلـة مثـل سـرنجة وقـد جـاءت لتنـزع إبـرة الكـانيولا وتمنحنـى قطنـة لأضغط بها على الوريد.

سلمت على هناء وزوجها وقبل أن أخرج اقتربت منهـا وسـألتها عـن صـحتها. كانـت تبـدو منهارة..سـألتها بينـى وبينها..

ـ عندك أطفال.. أجابت

ـ ثلاثة..

ـ أرجوكى قاومى من أجلهم..

ArabWorldBooks.com

يوم التخطيط

ارتفعت أنزيمات الكبد وتراجع جهاز المناعة وانخفض ضغط الدم لحدود خيالية...قال يوسف بهدوئه المعهود جملته التى أحب سماعها..

- ح نعديها.. حتما ح نعديها..

رغم مرحلة الهزال والوهن التى دخلتها إلا أننى أفرح حين يزج يوسف غطاس نفسه معي تحت سقف الأزمة ..

أشعر أنها بمثابة شاحن لإرادة الحياة بداخلى. لم يكن لي معه تاريخا يبرر كل هذا التعاطف فضلا عن معلوماته الطبية التي وضعها تحت يدي ونومه الذي سمح بأن أؤرقه ولو فى منتصف الليل. كانت الأيام الاولى من

ArabWorldBooks.com

معرفتى له ولأسـرته قـد اختزلـت سـنوات طويلـة وحرقـت عدة مراحل فى اتجاه صداقة عميقة وود جميل..

أعلم أن ما حدث في الثاني عشر من أكتوبر الماضي هو زلزال مثل زلزال أكتوبر الذي رج مصـر كلهـا عـام 1992. طـال ليـل النفـق ومازلـت أعـول علـى ذلـك النهـار البعيـد. معذرة نزلت الدموع على خدي وبللت الورق. مجرد " بـلاك مـود" وأنـا أحسـب الحسـبة طيلـة فتـرة الإشـعاعي وهـل بمقدور ذلك الجسد الهش والخارج لتـوه مـن معركتـه مـع الكيماوى، مع خصـم لـم يكـن كـفءً لـه غيـر تلـك الشـعلة المضيئة بـداخلى والتـى تعمـل مـع الخلايـا المناعيـة فـى مقاومة المرض..هل بمقـدوره أن يصـمد للسـفر يوميـا مـن أكتوبر للمستشـفى فـى شـبرا علـى السـاحل وبـالعكس لتلقى جلسات الاشعاعى..

قررت بيني وبين نفسـي وبعيـدا عـن الآخـرين التعامـل مـع السـفر يوميـا باعتبـاره نزهـة ضـرورية، فطالبـت إدارى قسم الاشـعاعى بتحديـد موعـد مبكـر. مازلـت غيـر قـادرة على قيادة سيارتى، نصحنى الطبيب بالقيادة فقـط داخـل مدينة اكتوبر لتحريك الذراع الأيمن وضـبط مسـألة التوافـق العضـلى سـريعا.. والبـديل الخـروج فـي الصـباح وأخـذ " الميكروباص " وتفادى شرائط النحيب والعويل التي تهـيمن بضـراوة علـى كاسـيتات المـوت والعقـاب والآخـرة والثعبـان الأقرع وفتاوى فايف ستارز.

كل سائق يرغب فـى ان يطيـر بالركـاب طيرانـا ليـأتى بثمن الميكروباص مع الفوائـد المبـالغ فيهـا. لـذا فأحاديـث النواح والعويل هى التى ستسـدد عنه دين السيارة وهـى التى ستعمى عنه ضباط المرور و ستخلى الطريـق أمامـه من الزحام وستبذر فى طريقه الخير..

هذا الصباح نهضت لأغسل رأسي جيدا وكأنني أرغب في الإطاحة برائحة الكيماوي التي ظلت تلازمني الأشهر الخمس الماضية. مثلما لازمنى اكتشاف وجود مشط أو بنس أو توك شعر فى درج أو كيس ورأسى بلا شعر، تبدو مثل قلقاسة مقشورة. أفرطت في استخدام الشامبو والصابون المطهر وبدوت لنفسي وكأنني أرغب في إزاحة تاريخ كامل للألم وانتزاعه من جذوره. صار يلازمنى أيضا احساس حاد وكثيف برغبة دائمة فى التقيؤ .

كان صعود عدد من الطوابق ونزول أخرى ودخول غرف مظلمة لا تصلح إلا للدسائس والمؤامرات، يجعلنى أدرك أن ما حدث وما زال يحدث هو تجليات مؤامرة أكبر ، لا تحتمل استبعاد أحد. والجميع متورط بما فيهم نفسى..

كنت أعاند الاحساس بالحزن والكآبة فأمسح دمعى إذا ما غافلنى وسال، خشية تغير كيمياء الروح والجسد. حدثنى جميل عطية الروائى والانسان الجميل من سويسرا ساعة كاملة يحذرني من الحزن والاكتئاب بعد الجراحة وطوال فترة العلاج، فكنت أبدع فى اجترار أية بهجة حتى من رؤية طيور بيضاء أو حتى سوداء تمر فوق رأسى. كل الطيور مبهجة لي حتى الغربان والحدايات والبوم.

لم أفهم ما هو التخطيط حتى دخلت حجرة رئيس قسم الاشعاعى ورأيته يمسك بقلم فلوماستر ثقيل ويأمرني بالتجرد من ثياب النصف الأعلى. وقفت أمامه نصف عارية وشعور عارم بالأسى لا أدرى لماذا.. أهو لفقد جزء من الجسد يدخلنى منطقة الاعاقة..لا وقت للبكاء على اللبن المسكوب... فلم ينفعنى لا مع رجال ولا مع أطفال.. تزوجت عدد من الشهور لم يقترب للسنة الواحدة ولم أنجب وظللت خمس سنوات كعب داير على المحاكم ومكاتب المحامين للحصول على ورقة الطلاق الذى لم يتم إلا حين أصدر رئيس الجمهورية قراره بقطع العلاقات

مع العراق بعد غزو صدام حسين للكويت، فسقطت كل القضايا وحصلت على الطلاق..

بدا أن المراحل التى تلت بعضها ليست إلا شكلا من أشكال التنكيل بامرأة ، حتى الممرضات جليديات ليس لديهن أية تعاطف مع امرأة مثلهن. كان التخطيط هو وضع خطوط طولية وأفقية تحيط الجزء المبتور والمخيط خياطة رديئة فلم تحدث أى تجميل للمكان المبتور متعرج وبارز وناتيء. وكأنه عدد من الغرز لخياط مبتدىء. أتفادى رؤيته فى المرآة.. بدوت مع التخطيط وكأن قطعة من جسدى تحتل فى التقسم الجديد لحساب الحزن والألم . رغم ابتسامة الطبيب الدائمة والتي يعلقها مثل وردة بلاستيكية فى عروة المعطف الابيض، إلا أنني أدركت على نحو وآخر بأن لا معنى لها.

رأسي هي العضو الوحيد المتاح له أن يطول الماء. ليس بمقدوري الاستحمام فهناك منطقة من جسدي مرسومة ومخطط حولها لحساب الإشعاع. منطقة محتلة لحساب العدو اللعين.

ـ خلاص.. أدخلي خدي الجلسة..

قالها وقد نفد صبري تماما ولم يكن بصحبتي أي من أخوتي، وبدوت لنفسي وربما للآخرين حالة تفتعل شكل القوة والصلابة رغم هشاشة الداخل..

يقوم الفنى بتشغيل الجهاز وينصرف .يغلق الحجرة بعد أن يكون قد سحب كل الضوء منها ويتركنى للصمت والعتمة فأغمض عيني متناسية كل شىء ، وأتشبث فقط برحابة المخيلة والتي تتركني أحيانا لصوت الآلة الذي " يزغور" ويغزوني إحساس بأنني حقا في بطن حوت ضخم. يتمهل قليلا قبل أن تتحرك أمعاؤه لهضمي.

أناشد سحر المخيلة البشرية التي طالما سعت إلى ابتكار وسائل تعين أصحابها على تجاوز الكوارث الأزمات والمسافات وكسر الحواجز.. وأترك نفسي آمنة في بطن

ArabWorldBooks.com

الحوت لكن سرعان ما تتغير الأصوات ويفتح الفنى الحجـرة ويدخل محركا الحوت في اتجاه آخر لا أتبينـه بعينـي ولكـن تحدونى القدرة على الحدس به.

لا أدرى لمـاذا راح عقلـى يسـتعيد أيـام الحجـر .. ذلـك الحجر الذي كـان يـربض أمـام بيتنـا. تحـرك كـل الـذين فـي البيت بين مرض وصحة وحيـاة ومـوت وسـفر ورحيـل وهـو قابع أمام الباب يشـهد أوجـاع النـاس وأحـزانهم وأحلامهـم وهزائمهم.

شغلتني فكرة الخلود والأبدية فـى زمنـي المبكـر وأنـا أرى النـاس تتسـاقط مثـل أوراق الشـجر الذابلـة والحجـر باق.. راح الأسـلاف والأجـداد والآبـاء وبعـض الأبنـاء والبنـات والحجر باق لم يتحرك. كنت أعى على نحو ما ضآلة البشر ووهنهم إلي جوار الحجر، وكيف يتـآكلون وهـو بـاق. حتـى أنني قررت أن أعقد معه صلحا أبديا فذهبت وجلست عليه وتركت مساحة كبيرة خالية عله يتحرك ويـتكلم ويمنحنـي سر بقائه. وهو الذي لم يدخل صراعا مـن أجـل البقـاء كمـا يفعل البشر وأغلب الكائنات الأخرى حتى النمل.

حين عرفت أنني مصابة بالسرطان ابتسمت و تـذكرت أيـام انشـغالي بفكـرة الخلـود والأبديـة منـذ طفـولتى، وضحكت ساخرة من فكرة حصاري بـالموت الـذي يـدفعني دفعـا لتجـاوزه بـإرادة فولاذيـة لا لشـيء إلا لأجـل الحيـاة نفسها، علـى الـرغم مـن أننـي لـم أعـش المبـاهج التـي حلمت بهـا فـى الحـب والـزواج والأطفـال ، وإحـراز طمـوح أدبي يليـق بتعـب وشـقاء وصـدق موهبـة . علـى العكـس تمامـا كانـت الرحلـة منـذ الصـغر تأخـذنى مـن شـقاء إلـى شقاء، وكأنها صخرة سيزيف أحملهـا علـى ظهـرى ومـا أن أدرك بداية الجبل تسقط منى وأنزل لأبدأ من جديد.

حـدث هـذا حـين اشـتريت سـيارة صـغيرة مسـتعملة تجنبنـى المآسـى التـى تتعـرض لهـا المـرأة الوحيـدة فـى ركـوب الأتـوبيس والميكروبـاص والمتـرو، وتخصـيص عربـة

للسيدات أشعر فيها بأننى فى سرادق عزاء للسيدات أو فى قفص حريم والزى السائد الحجاب والنقاب ويتعامل الجميع معى على أننى مسيحية..فضلا عن عناصر التحرش والاستيلاء على أذنى لبث ثراء التفاهة اليومية والصراعات واعادة انتاجها لازاحة الملل والرتابة وقت زحام المرور..

علمتنى سيارتى القيادة فارتبطت بها ارتباطا بشريا حميميا وفى لحظة وقف ضابط مباحث ببابى ليخبرنى أن سيارتى مسروقة وعلىّ تسليمها إليه، وأن علىّ أيضا النزول حالا لعمل محضر ورفع قضية وموت يا حمار.. وبدأت رحلة شقاء أخرى بين المحامين وأقسام البوليس والمحاكم..

حتى حين قررت أن أكتب سيناريوهات لأعمالى. كنت أطمح فى كتابة دراما جميلة أحسن بها شروط حياتى وحياة البشر، فإذا بالشركة المنتجة تطالبنى بتصريح كتابة يستخرج من نقابة السينمائيين بعد دفع مبلغ فادح، وكنت قد أمضيت سنوات لأكتب وأمزق حتى وافقت الرقابة على إجازة مسلسل "نساء وحيدات". وإذا بالاجراء الرسمى مثل اجراءات الدفن والميت حى، يطلب تصريح كتابة من كاتبة. يومها استشعرت كما هائلا من القهر وأن الصخرة التى أحملها على ظهرى سقطت مرة أخرى وعلى النزول لحملها من جديد..

وغير ذلك كثيرا والفارق دائما في درجة القهر وليس في النوع.

عرفت أن المرض من الدرجة الثانية واحتمال العودة قائم بنسبة خمسين فى المائة.. شكرا للذين يقهروننا..

ArabWorldBooks.com

وجوه غائمة...

فـى مركـز الأورام يرتجـف بـدنى دائمـا كلمـا دخلـت ورأيت وجوه الأطفال التى تشبه قلقـاس مقشـور، أتفـادى النظر إليها فى محاولة عبثية لتحصين الـنفس والـروح ضـد الحزن والفزع على هذا الكم الهائل من الأطفال..

وفى قسم الاشعاعى الحركة دائبة ومتصلة..

فجأة وجدته أمامى ..صديقى شعبان يوسـف .. كنـت غاضبة لأنه ومنـذ بـدأت المحنـة لـم يتصـل ليسـأل علـىّ.. فرحت أنه أتى ليساندنى. اقتـرب يسـلم علـىّ ةيسـألنى عن سر وجودى فى المركز.

دهشت فقد تخيلت أن شعبان يوسف جاء من أجلى بعـد أن علـم بـأزمتى مـن أحـد الأصـدقاء. كـان برفقـة أمـه حاصـرها هـى الأخـرى المـرض. سـلمت عليهـا وقبلتهـا.. أعرف أم شعبان جيدا فنحن اصدقاء منذ زمن. ربتـت علـى كتفــه واعتــذرت لــه دمــوعى، فقــد تخيلــت أنــه أهمــل مشاعرى ولم أدرك أنه هو الآخر فى محنة مشابهة..

الفنيون فـى مركـز الإشـعاعى غايـة فـى الدقـة فـى استدعاء المهارة واحترام الوقت.. كل الحضور إما مرضى أو رفقــائهم.. جئــت وحــدى، أصــر علــى قيــادة ســيارتى بنفسى.. طالت المسألة واشتدت وطأتهـا علـى نفسـى فما بال الآخرين ..

الآلة الضخمة رابضة مثل وحش أبيض يفرط فى إخفاء أسنانه ومخالبه وأذرعه وأياديه،فأتقدم مستنفرة كل قوتى كأننى أدخل إلى مبارزة..

يوجهنى الفنى بالشـكل الـذى يحقـق أفضـل النتـائج المرجوة فيصوب الاشعاع على مكـان الجـرح، محـذرا ايـاى مـن أدنـى حركـة.أظل ثابتـة مغمضـة العينـين بـين فكـى

الوحش. وبعد قليل تتحرك أياديه ليدخلنى إلى أغوار لا أستطيع ادراكها عبر المخيلة..والظلمة متعددة الطبقات تسلمنى كل طبقة إلى أخرى وأسمع أصوات الوحش مثل "زغورة" بطن جائع أو تفكك مسامير أو صواميل فى آلة. ينهض خيالى وأدرك على نحو وآخر أن تهاويما بنفسجية تأخذنى إلى بعيد.... أدرك أنه فى منتصف الوقت سيدخل الفنى ويدير مفتاحا آخر .. وتأخذنى المخاوف وتصاوير الرعب، فربما فى لحظة شديدة العبث تنهار هذه الآلة فوق جسدى وتبتلعه وأجدنى أجرى مذعورة إلى مخاوف أكثر رقة. وتأخذنى أسباب الخوف إلى أنبوب كبير حتى نهايته ليدخل الفنى ويدير المفتاح ويخرج ثانية فأفرح أن نصف الوقت تحت جهاز الاشعاع قد إنقضى .....

آلة تعذيب أخرى سأخرج منها وأسير فى الشارع امرأة مشعة.. حذرنى البعض بألا أرى أطفالا أو شبابا أو حوامل فمددت الخط على استقامته فقررت ألا أرى بشرا..

نبهت على أخوتى بألا يأتوا بأولادهم كما نبهت على أخى جمال حتى لا يأتى بزوجته التى تتشوق للإنجاب من أكثر من عشرة أعوام، ومازالت تصر على شوقها وأنا أشجعها . جمال هو الوحيد الذى كانت لعبة الجينات وقانون الوراثة على أشدهما معه. ورث عن أبى كل أشكال الشراسة والقسوة والتسلط وقهرالآخرين. اكتشفت أن أبى وزع صفاته الوراثية بالعدل القبيح على أخوتى الثلاث.. فأخذ مجدى اللامبالاة والانفصال التام عما يحدث فى الحياة.. وأخذ عاطف العجلة فى اتخاذ القرارات والنزوع الدينى حتى التطرف، وطمع جمال فى الباقى..

أخفيت نفسى عن البشر .. حتى الأصدقاء والجيران والذين يدقون الباب لطلب حسنة .. خشيت على كل البشر وقررت أن أتحمل توابع الزلزال وحدى..

ArabWorldBooks.com

أثنان وثلاثون جلسة اشعاع يوميا من أكتوبر للقاهرة وبالعكس، والوقت يمتد فى ردهات العتمة ولابد من اللعبة القديمة التى أستخدمها كآلية دفاع، فأستدعى تصاوير وتهاويم أو أحلام لذيذة ..لعبة مجربة للخيال تستدعى جيشا من الخلايا المناعية لمهاجمة الخلايا السرطانية.

ونفس الحلم الذى يتكرر كثيرا فى مناماتى .. أننى داخل سيارة متهالكة لا تسير عجلاتها بل أجرها لتتقدم بى.وتنقطع أنفاسى كدا وتعبا. أدرك على نحو ما أنها حياتى أو جسدى الذى صرت أتعامل معه كالسيارة التى إذا ألم بها عطل أنزل لأصلحه ثم "أزقها" بنفسى حتى تسير ولو لأمتار قليلة.. وإذا ساعدنى آخرون ، تحفرأسماءهم فى لوحة الشرف المثبتة على بوابة روحى، ويصيروا أصدقاءً إلى الأبد.بهجة أخرى تضاف لكم البهجات الصغيرة التى أستحلبها مثل حبات النعناع.داخل دوائر التهاويم يتفتق ذهنى لاستدعاء أشياء جميلة لتؤكد لى أن مسارات العمر لم تكن موحلة تماما..

ضمن الوجوه التى أستدعيها وجه "آندى" بطل فيلم لم أره من بدايته.."وداعا شوشانك" لكننى عشقته عشقا وانتظره دائما على أى من قنوات الدش .. شاب مثقف سجن فى جريمة قتل غير متأكد منها وحكم عليه بثلاثين عاما. كان يقرأ بنهم ويراسل مؤسسة عامة لتمنحه دعما لعمل مكتبة للسجناء وبعد ست سنوات استجابت إحدى المكتبات الكبرى وأرسلت له كما من الكتب المستعملة.. وأقام بمساعدة السجناء مكتبة عامرة فى السجن ودفع الجميع للقراءة. جمع "آندى" الكثير من المعارف وخاصة فى علم طبقات الأرض واكتشف المسئولون بعد هروبه أنه حفر خلف صورة يعلقها لراكيل ولش على جدار زنزانته نفقا أوصله إلى ماسورة للمجارى. ظل عائما فى القاذورات لمسافة خمسمائة ياردة حتى وصل إلى مصرف فمزق ثيابه ورفع يديه للمطر وضوء القمر مستمتعا بالحرية..

ArabWorldBooks.com

سأستدعى أيضا لحظات الحب الجميلة التى عشتها مع الرجل الوحيد الذى أحببته وتزوجته ولم تصف الحياة بيننا كثيرا ولم يكن لأى منا ذنب أو جريرة . كان يستمتع بممارسة فعل الحب والغزل تحديدا قبل نزول الصاروخ.. وكان الخوف والفزع يتكفلان بتدمير أجمل المشاعر فأرجوه أن يأخذنى ونفر إلى الشوارع ليفعل البعد والتنائى فعلهما فى تفتيت الخوف والفزع إلى دقائق وساعات نذرع فيها الطرق جيئة وذهابا حتى يسقط الصاروخ.

كتلة الحر الصافى المنزوعة تماما من أى رحمة يصبح بمقدورى الامساك بها من فوق أشجار مجهولة الهوية. وفى السيارة أقترح عليه النزول إلى منطقة وسط المدينة وحين يتوقف أنزعج.. وأدعوه لنجرى ونجرى ربما استطعنا تجاوز قدرنا.. ونظل طول الليل نجرى ولا نتوقف وحين ندرك طريق المطار أرجوه أن يدعنى أفر بجلدى من قدر غريب فيضحك ضحكات مجنون أو عاشق أو شيطان..

يأتى الفنى ليضغط على المفتاح مرة ثانية ولا أفيق من غيمات بعيدة، كأننى في لحظات التأرجح بين الضوء والعتمة ألمس بأصابعى سرّ الوجود. تستدعينى اللحظات وأستدعيها لترسم على فمى ابتسامة غائمة لن يراها أحد بسبب الإشعاع.

ArabWorldBooks.com

سهرة مع رجل الأمن

فى ليلة رأس السنة شعرت بقدر من التفاؤل، أن السنة الكئيبة التى نالت منى، ستغور غير مأسوف عليها. كم السيارات المزدانة فى الشوارع بالبالونات والشرائط الملونة ونزق الشباب وصخب الاطفال فتح مجالا لحالة أخرى تخفف على نحو ما سخونة الألم ..

تلقيت دعوات كثيرة للسهر لدى بعض الأصدقاء فى القاهرة وأكتوبر ، رفضتها جميعا لحساسية وضع لا أحسد عليه. أزحت الملاءة عن مرآة الصالة ورأيت امرأة أخرى صارت فى وجهى وجسدى، سقط شعر ى ورموشى وأسنانى و نهض الشحوب والهزال والوهن فبدوت لنفسى مثل كائنات فضائية..خشيت أن يبدى أحد تشاؤمه لوجودى فتصلني سهامه، أشفقت على نفسى من ثقل نظرات البعض وغباء البعض الآخر . احتجب عن مجال السمع والبصر أصدقاء كنت أعدهم من أعمدة حياتى وأركانها. ورغم هذا سامحتهم ورحت ألتمس لهم أعذارا

Arab WorldBooks.com

وأنـا أراهـم مثـل أوراق الشـجر اليابسـة التـي أرغمهـا الشحوب والاصفرار على التساقط.

تـركتهم يتسـاقطون ورحـت أحتفـي بـالأوراق التـي مازالت خضراء تتشبث بمكانها في القلب وفـوق الشـجرة. أصدقاء وصديقات ومعارف تدافعوا فـى اتجـاهى بمزيـد مـن الحب كما وفدت إلىّ أصوات من أرجاء العالم أصدقاء وأقرباء وغرباء تصر على تصـدير المعنـى الأرقـى للبشـر الجميـل، الذين علىّ أن أتمسك بهم حتى آخر لحظة..

قـررت وأمـى أن نحـول الليلـة لليلـة أكثـر مـن عاديـة. أعدت أمى كيكة قليلة السكر وأرسـلت فـى شـراء شـاى وبـن وبعـض الفاكهـة وشـرعنا فـى السـهر مـع بـرامج التليفزيون..احتجب أخـوتى صـوتا وصـورة لاعتبـارهم ليلـة رأس السـنة ليلة تخص الأقباط أكثر مما تخص المسلمين.

وبعيدا عن "أدلجـة" الليلـة أسـتطيع أن أجـزم أن كمـا هـائلا مـن التفـاؤل صـار أداتـى فـي تهيئـة الأجـواء ببهجـة مغايرة. ناديت علـى رجـل الأمـن وألقيـت لـه مـن الشـرفة بمقص وقطف صحبة ورد بلدى أحمر وأصفر وبنفسج وصعد ببدلته الزرقاء وكاب رأسه.. شاب أسـمر عسـلى العينـين. أعطانى الورد، وأبقى واحدة بيده..

ـ ودى منى.. سلامة حضرتك وكل سنة وأنت طيبة..

شـكرته ووضعت الورود فى فازة صينى مرسـوم عليهـا رسـوم صينية تشـى برقة ورهافة.

على الرغم مـن بـرودة الليلـة فقـد سـرت موسـيقى ناعمة وراحت تفتح مجالا لـدفء تؤكـد أمـى انـه مـن جـراء فرن البوتاجاز وهى تتابع الكيكة.. لم يمر وقت قليل حتـى فاجأتنى أن أنبوبة الغـاز فرغـت، ومـا تبقـى منهـا لا يكفـى

ArabWorldBooks.com

لإعـداد فنجـان قهـوة... نـادت أمـى رجـل الأمـن نفسـه. يجلـس علـى أول المربـع السـكنى لحمايـة العمـارات وسكانها، شاب ريفى غير مؤهل على أى نحو من الأنحاء وربما يجهل القراءة والكتابة، تأتى بهم شركة الأمن الخاصة لتضعهم أمام المربعات السكنية ولا تمنحهم إلا مبالغ زهيدة فى مقابل أن يمضى كل منهم وردية إثنى عشر ساعة. لاحظت أن أغلبهم معوقون ، من يعرج بساقه ومن له كف معقوف ومنهم عجائز أو شباب دون العشرين فضلا عن أن بعضهم له "سوابق" فترغمهم شركة الأمن الخاصة على العمل بشروط غير إنسانية والمرغم والمضطر والبائس والذى يعول زوجة وأطفال ليس عليه إلا أن يركب الصعب...

أكد لنا موظف الأمن أن عربة الأنابيب مرت منذ قليل ولن تمر ثانية إلا فى صباح اليوم التالي. وفى إدارة أمى للأزمة نادته ليساعدنا فى نقل أنبوبة السخان إلى البوتاجاز وبالفعل صعد الشاب ونهض بالمهمة كاملة. وحين فرغ مسح كفيه ببعضهما ودعته أمى تحية على مجهوده معنا على كوب من الشاي.

فى البدء أوصلت لها إحساسا بالتردد ثم سرعان ما أكدت دعوة أمى لموظف الأمن..

في تلك الليلة بدا موظف الأمن مختلفا عن ذلك الذي نراه كل يوم يجلس في مقدمة المربع السكنى في منتصف الحديقة يحرس المكان. كان شابا وسيما ونحيلا قدمت له أمى قطعا من الشيكولاتة التى جاءني منها الكثير، فأبى متعللا بأنه مريض "سكر" وأنه سيترك هذه الشيكولاته لأطفاله فمنحته أمى الكثير منها. بدا ممتنا وهو يشرب الشاى والخجل يلفه. فيحرك نظراته بيننا ثم إلى الأرض.. أكد أنه يتعاطى حقنتين أنسولين صباحا ومساءً.

ـ يا ضنايا يابنى .. ده أنت صغير على السكر وبلاويه..

ثم وكأنها تستدرك شيئا راحت تؤكد له بحنان بالغ أن السكر مرض يمكن مصادقته مدى الحياة، ونصحته بألا يستهين به، فمن استهان به أهانه. وأنها هى التى جاوزت السبعين بأيام مريضة سكر منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما وصحتها جيدة على نحو ما.

كنت أتأمل فلسفة أمى التى لا تتبناها على الاطلاق وأبتسم ، وربما قالت ذلك شفقة لصغر سن الرجل. أدرك على نحو ما مدى رحابة قلب أمى المشرع لكل البشر على اختلاف جنسياتهم وأعراقهم ومستوياتهم وحالاتهم. تذكرت كيف كانت تحتوى صديقتى نادية الفلسطينية وليلى اللبنانية وكارولين الأمريكية وزوجى العراقى وأم عطية القبطية وأم صابرين التى أعطتها غرفة السطح لتبعدها بابنتها الجميلة "صابرين"عن عبث الشباب فى خيام الإيواء.. أمى هيئة أمم متحدة متنقلة..

داعب الرجل الفضول فى عيون أمى وهى تنهال عليه بالأسئلة عن سكان المربع السكنى الذين لا يعرف بعضهم البعض، فحكي أن المربع به الكثير من النساء اللائى يعشن وحدهن. وأنه يحرص علي حمايتهن جميعا.
حكي عن مهندسة شابة تعمل بأحد المصانع التى تنتشر فى المنطقة الصناعية بالمدينة وتعيش بمفردها، وان والدها يدفع له ليحميها من زوجها الذى خدعها بأنه مهندس وإذا به مجرد عامل فى مصنع ولم تكتشف خديعته إلا بعد أن أنجبت منه. وأنها الآن تناضل من أجل خلع سريع.

حكى أيضا عن جارتنا الفلسطينية التى تسعى طول الوقت لقمع السكان فى عمارتها وفى العمارات المجاورة زاعمة أن زوجها ذو مكانة أمنية بارزة ولذلك يعمل رئيس

مكتب شركة الأمن على أن يسدل عليها ستائر الأمن والأمان. أراها تتحكم فى مصائر كل رجال الأمن الذين يتناوبون على حراسة المربع السكنى وكذلك عمال النظافة والجناينية.

حكى الشاب بمعرض البحث عمن يتدخل لإنهاء مسألة نقله المؤكدة نتيجة تجاهله لطلبات الفلسطينية التى تثقل كاهله وتضعه فى صورة خادم لا رجل أمن..

كانت جعبة الشاب مليئة بالحكايات وأمى لا تشبع من حكاياته وتلا فنجان الشاى آخر من القهوة ولم يخل الأمر من العصائر والكيك والفطائر والتوصيات على الصحة والأولاد..

ذهب الرجل ولم تنس أمى أن تعطيه بقية علبة الشيكولاته وهى تتفادى النظر فى عينى قائلة

ـ لأولاده.. ولاده ما عندهمش سكر..

ثم وكأنها تربت عليه وربما عليّ..

ـ على فكرة السكر مش وراثة..

تبريرات أمى كثيرة..تفعل هذا حين تبادر بفعل ترانى أتابعه بحذر .. لم أنتظر كثيرا لتدق الساعة الثانية عشرة وأن يمضى العام إلى حال سبيله، وأنا اتمتم مثل صلاة ..

ـ يغور غير مأسوف عليه.

ArabWorldBooks.com

وجه يوسف.....

كل ظنونى وتهويماتى، حتى استنتاجاتى المبينة على شواهد ومقدمات ونتائج، مع عناصر حسن النية..كلها لا تمنحنى تفسيرا شافيا لما فعله معى يوسف غطاس ومازال يفعل حتى الآن.

مضى على الزلزال أكثر من ثلاثة أشهر وكأنه حدث بالأمس فقط..

فى البدء بدا لى الأمر أشبه بالدخول إلى بيت الثعابين وليس هناك من رفاعي واحد أو حتى أحد الحواة خفيفى الدم، وفجأة ومن دون أدنى مقدمات تطفر الأرض بشاب هاديء، طيب القلب ، لا يمكن أن أتخيل إلا أنه يملك جيتارا أو ريشة أو قلما .. كائن رومانسى من الدرجة الأولى ، تنشق الأرض كما فى الاساطير القديمة ويقفز لأجده إلى جوارى وفى يده ورقة طويلة تذكرنى بمظالم المواطنين فى عصر غلاة الولاة .. مكتوب عليها بحروف من ذهب روشتة كافية للتعامل مع الثعابين والافاعى والحواة.

لم يمنحنى الحواة أقصد الأطباء أية معلومات كافية عن المرض أو العلاج، مجرد تقنيات يرددونها وكأنهم كهنة

المعابد القديمة، أو أنهم المغناطيس ونحن قطع من حديد ننجذب إليهم حيثما يكونوا..

كل طاقم الأطباء تعاملوا مع المسألة وكأنها أسرار عسكرية أو قضية أمن قومى، وأن المريضة التى هى أنا كيان قاصر غير كامل الأهلية يستوجب حمايته من أى وعىّ...

لم يكن الوقت الذى عرفت فيه يوسف غطاس قبل اكتشاف المرض بالوقت الكافى لطرح علاقة انسانية حدها الأدنى المعلومات الطبية وحدها الأقصى فضاء مفتوح وممتد بالود والمحبة.

أتذكر أول جملة قالها لى بعد أن تبادلنا أطراف الحديث وهو يقيس لى الضغط.

ـ فيه منك كتير ؟ انت منين؟

ـ أكيد .. موطنى الأصلى القاهرة..

ابتسم وتحرك مسرعا ليأتى بمقعد بشلتة ثم بضع خطوات أخرى وأتى بحبة "ايبيلات" مع كوب ماء لخفض الضغط..

وجهه ليس غريبا على الاطلاق.. يشبه صديقا أو قريبا أو أى أحد يشبهنى. ابتسامته مثل لافتة مكتوب عليها.. أنت فى أمان.. أو الحياة مازالت بخيرها. ثم ينشغل مع رواد الصيدلية.أغلبهم عمال وموظفين ينتمون للحى الثانى عشر. أحد أحياء الفقراء فى مدينة 6أكتوبر..

بعد وقت سألنى..

ـ حضرتك ساكنة قريب من هنا

ـ فى الحى الحادى عشر..

ـ فيه هناك صيدليات فاخرة

ـ بس مفيهاش جهاز "زيبق.."..

ـ كله ديجيتال ..عولمة بقى..

وأنا قادمة إليه ذهبت إلى محل للكاوتش وركبت لفلة فردتين. صاحب المحل رجل ملتحى تبدو عليه طيبة متناهية، حدثنى بود وحفاوة هو وزوجته المنقبة والتى

كانت تجلس فى عمق المحل لا تبان من عتمة الداخل.. ابتسم وهو ينظرا إلى سيارتى "فلة" ثم سألنى .. تبيعيها ؟..
ح تركبى أكبر منها ..
فهمت انه يتاجر فى السيارات المستعملة ..

عجلات فلة صارت عفية ومشدودة تنهب المسافات إلى صيدلية يوسف غطاس.. الصيدلية تذكرنى بصيدلية فى شارع القصر العينى فى الستينات، ليس لها من شروط العصر سوى الكراسى البلاستيك والكاسيت الـ سونى الذى تنبعث منه موسيقى كلاسيك..بيانو

منذ جئت المدينة وبعد ترتيب الاشياء صرت أعانى حالة اغتراب لا حدود له. بهرتنى الشقة التى تطل على حديقة بأشجار وارفة الظلال ومساحات من السماء بأفق ممتد.. مدينة بلا دخان أو عادم سيارات وبلا ضوضاء .. بهرنى أكثر مساحة الشمس التى تدخل الشقة، تفرد نفسها مثل غلالات ذهبية على المقاعد والأرض وجدران الشقة التى تطل على بانوراما كاملة لمشهد الغروب وتنويعات لونية وتكوينات السحب، والحديقة مصنع صغير للأوكسجين, والطريق السريع المؤدى للمنطقة الصناعية والنخيل على جانبيه كأنه طريق ثالث للجنة.

كان حلم حياتى أن أعيش فى بيت تدخله الشمس. لى تاريخ سىء مع البرد القارس فى كل البيوت التى سكنتها بدءً من بيت أبى إلى بيت زوجى حتى بيت أمى وبيتى فى مدينة الشروق والذى عشت فيه أكثر من عشرة سنوات دون شمس. فكانت المغامرة غير محسوبة العواقب، والتى لامنى عليها الكثيرون. حتى بعد أن حدث زلزال أكتوبر هكذا أسميت "محنة المرض"، يلومنى البعض وأغلبهم من المثقفين والمثقفات بأن البيوت أقدام

وعتبات ..غيرى العتبة. أهلى وجيرانى وزملائى فى العمل يقولون شيئا لا يختلف كثيرا ...

ـ فرفطة ذنوب ..

ـ كله فى ميزان حسناتك..

ـ روحى حجى أو اعملى عمرة

فى تلك الأثناء وجدت الباب يدق وسيدة بدينة بجلباب طويل ومعها ثلاثة رجال. تستأذننى بأنها ترغب فى أن ترى الشقة المعروضة للبيع..

ـ أى شقة؟

ـ شقة المهندس ماجد هذه..

لم يخطرنى مالك الشقة .. أهكذا تقتحم بيوت الناس وبعد منتصف الليل.. أسقط فى يدى و بعد أن طلبته هى على التليفون أدخلتها وحدها تتفرج على الشقة التى لم تكن مهيئة لاستقبال أحد وتتناثر فيها رائحة الكيماوى والأدوية الكثيرة وفوضى المرض. كانت المرأة تبدو كما لو أنها قادمة لتوها من الخليج.. عباءة سوداء لا تخفى بدانتها المفرطة وذهب غزير وطرحة تسهل لبعض الشعر الأصفر بأن ينفلت ونظرات تبثها هنا وهناك.. وحين أتت عيناها بعينىّ أحسست بأننى احدى مقتنيات الشقة. وأننى لست ساكنة، أو حتى منتفعة بالعين وفق عقد.. بل حارسة لأملاك السيد المالك. عبقرية هذا الزمان. خرجت المرأة وغامت بى الدنيا لأن المصائب تأتى جماعات لا فرادى، فرحت أحدث يوسف غطاس...

كان يوسف قد صار صديقى الوحيد فى مدينة أكتوبر، القرية بشروط العصر، وشيئا فشيئا تكشف لى وله أن ثمة قواسم مشتركة بيننا ..نحزن لعدم تواجدها مع آخرين. بعدها أدركت على نحو وآخر أن حديثنا عن اغترابنا فى الزمان والمكان وقسوة الأب وصرامته نوع من تفتيح الجروح من أجل تطهيرها..

عم غطاس رجل صارم للغاية يذكرنى بشخصية محمود المليجى فى غير أدوار الشر. قوى، خلوق، عاشق للراحة ولأصدقائه المهاجرين لكندا وأمريكا واستراليا و

يراسلهم ويهاتفهم وينتظرهم فى أجازاتهم من العام للعام. أراه يستمتع بالحديث عنهم. فما أن يرانى حتى يسهب فى حكاياته معهم وأنه قد أحرز فرصا كثيرة للهجرة لكنه يحب بلده. كانت أم يوسف وهى امرأة مريضة وجميلة. أحببتها من نظرات الحنان التى تبثها على الجميع. هى الأقرب فى الصفات والملامح من يوسف. حتى فى رقتها وحنانها . مع الوقت صارت أسرة عم غطاس أسرتى فى مكان اقامتى الجديد، والذى صار هو الآخر مثل صحتى على كف عفريت أحمق..

فى الصيدلية يبتسم يوسف ، ثم تنهض بينى وبينه مناقشات طويلة فى الأدب والسياسة والفلسفة. وهو عاشق متيم بالفلسفة والروحانيات واليوجا والبحث فى أغوار الديانات، عن صيغ أكثر انسانية للرحمة . كان يبدو لى مثل طائر محلق فى السماء وكنت على النقيض منه تماما أسير بخطى راسخة على الأرض، فأحدثه عن أحوال الناس وما طرأ عليها من تغيرات ومدينة أكتوبر التى صارت مدينة كوزموبوليتانية تستقطب العرب والاجانب والفلاحين والصعايدة والمتطرفين والمتسولين. ومازال البعض يتعامل مع مدينة أكتوبر باعتبارها قرية معزولة .. وكان عم غطاس ينتظرنى وفى جعبته الكثير من الأسئلة فى كل شىء. ظنا منه أن الكاتب موسوعة كبيرة للعلم والمعرفة ولاحظت أنه سعيد للغاية بعلاقتى بهم وخاصة بـ "يوسف" فاذا حدث وذهبت ولم أجده ينتفض مسرعا إلى التليفون ليخبره بود شديد أن الأستاذة هنا..ولا يمر وقت قليل حتى يأتى يوسف ليجدنى وقد ادخرت له كما هائلا من الأسئلة الخاصة بتطورات الحالة الصحية وكأنها تجليات المكان وكان هو لا يبذل جهدا لطمأنتى..

وجه يوسف وأمه وأبيه وجوه جميلة تبدد غربتى واحساسى بالسأم..

وجه جارى الموسيقار الذى يسكن الطابق الأعلى. تجاوز الاربعين بقليل تبدو عليه سيماء التحضر والاستنارة،

متزوج من أجنبية وله منها ابنة تزوره من آن لآخر. قابلنى بها مرة على السلالم وكان مبتهجا وكأنه يقدم لى انجازه الكبير نتيجة التفاعل الحضارى بيننا وبين الغرب. لم أتعرف عليه جيدا لكن راقت لى فكرة أن يكون لى جار موسيقار وجار آخر بائع للزهور ومجموعة من الجارات الصغيرات كلهن خريجات كليات الفنون الجميلة تزوجن وتحجبن وبقين فى البيت.

وجه جارتى التى تسكن الشقة المقابلة سيدة عجوز يتحلق حولها بناتها وأولادها من آن لآخر وتمنحنى بشاشتها وابتسامتها آفاقا للأمل حين تفتح بابها من الحر.. تم اختبار مشاعرى تجاه جيرانى فى أكثر من فرصة سانحة..

أخبرنى الاستاذ شادى جارى الموسيقار أن ضوء السلم عاطل وأنه سيبذل جهدا فى إصلاحه حتى اذا تأخرت فى العودة لا أتعثر فى عتمة السلم. يرفرف قلبى بحنان البشر حتى لو كانوا غرباء، وحتى لو ظلوا مناطق مبهمة أو ملغومة.. ظننت أننى سأسمع موسيقاه ليل نهار وإذا بى لا أسمع إلا دقات وخبط. وحين سألته أخبرنى أنه يهوى النجارة. ضحك كثيرا حين أخبرته أن أمنية حياتى الآن أن أسكن مع نجار يهوى الموسيقى..

ضحك يوسف حين حكيت له عن جيرانى ..

أتابعه كلما دخل أحد الصيدلية ليطلب علاجا .. أراه بطلا مثل أبطال الملاحم الشعبية والأساطير القديمة يبذل جهدا مضنيا فى خدمته مانحا اياه أذنين صاغيتين.. كنت أظن أنه يعاملنى معاملة خاصة لكنها رقته الدائمة مع البشر الضعفاء والفقراء، يبدى الود والعطف والشفقة ويبذل جهدا فى مداواة الناس والتخفيف عن آلامهم بحنو ورحابة صدر. لذا لم أكن حذرة إزاء تدفق عواطفى فى

اتجاهـه وأراهـا فـى حقيقتهـا بعيـدا عـن مكسـبات الطعـم واللون والرائحة..

كل سـكان الحى الفقير أصدقاءه صاروا لى كـذلك.. لـم أر أحدا يدخل بروشـتة طبيب، الجميع يـأتون بمواجـع وأنـات وشـكاوى.. كـان يوسـف طبيبـا وصـيدليا فـى نفـس الوقـت يتفانى فى خدمة الجميع وكأنه نبـى أو مسـيح بعـث مـن جديد..

كنت أدهش حين اراه يدير أزمتى الصحية بذكاء ومهارة وتحد بالغ، وأفرح أنه وعائلته يتعـاملون مـع محنتـى وكأنهـا شـيئ يخصهم . كثيرا ما كان يواجه ضجرى وقلقى بجملته الشـهيرة..

ـ ح نتعكز على بعض عشان نعديها..

يومها بكيت وفرحت فى آن واحـد لأن هـذا تواكـب مـع الـذين انفضـوا مـن حـولى مـن أصـدقاء ـ أعمـدة خرسـانية حياتى ـ هكذا كنت أسميهم ..

فرحت بذلك الود الجميل الـذى ظـل ينسـاب مثـل مـاء رقراق وأنا أتعامل مع "يوسـف" فضلا عما يحمله مـن وعـى ومعرفة طبية تفوق حتى الكثير من الأطباء الـذين عـرفتهم فى المستشـفى، بما يستقيه من أحدث النظريات وأحدث طرق العلاج لهذا المرض وذلك الجهد البحثى الـذى يزاولـه من بيته "من النت" عبر جامعات عـابرة القـارات أو التعلـيم عن بعد..

كان "يوسـف" هـو دليلـى الطبـى الوحيـد وكنـت مـن خلالـه أراكـم خبـرة مغـايرة تعيننـى علـى التجـاوز. كنـت أخشـى مـن علاقـة الحـب الشـهيرة التـى لابـد وحتمـا أن تحدث بين المريضة وطبيبهـا، إلا أن العلاقـة كانـت متعـددة المستويات حتى ضـبطتنى ذات يـوم.. أطلـب يوسـف فـى التليفون وأسأله..

ArabWorldBooks.com

ـــ لـو عـايزة أقتنـى طبيـب جميـل ومثقـف وفنـان وحساس.. أعمل إيه..

وإذا به يرد علىّ..

ـ أنا أصلا من مقتنيات أميرتى..

أكد علـىّ بضـرورة أن أطلعـه علـى كـل شـاردة وواردة تخطر على رأسى وكانت الهواجس الخاصة بـالالم والجـرح تحاصرنى، وأن علينا أن ننحى كل شىء جانبا ونفكر فقـط فى أن أفرح وأبتهج بالحياة والشـفاء القـادم لا محالـة، وأن هذا وحده يغير كيمياء الجسم والدم مع نمـط الغـذاء الـذى يقوى جهاز المناعة.

أفاض " يوسف غطـاس" فـى تجميـل وجـه الحيـاة مـع الأزمـة بـأن مسـألة الثـدى مسـألة بسـيطة وهنـاك قطعـة توضع مكان الثـدى الـذى تـم استئصـاله وسـيكون الشـكل كمـا لـو أن شـيئا لـم يحـدث علـى الاطـلاق عبـر عمليـة بسيطة للتجميل.

أكدت له أننى لست ممـرورة علـى ضـياع قطعـة لحـم ولا أنتظر قطع غيار لما فقدته. المسألة لا تزعجنى قدر مـا يزعجنـى الألـم بـين الـذراع ومكـان الثـدى المبتـور. خفـف كثيـرا مـن وطـأة المسـألة حـين راح يمـدنى بقـدر مـن المعلومات . لم أحرص أبدا على احـداث تـوازن بـين الثـدى المبتـور والبـاق ، بمـلء الفـراغ بقطـع قمـاش كمـا تفعـل الأخريات.. كنـت أرغـب فـى أن أعـيش كمـا أنـا بامكانـاتى وقدراتى الحقيقية، ثم أننى لا أفكر فى الزواج ثانية. الحياة لا تعدم أشـياء كثيـرة مبهجـة، بعيـدا عـن رجـل يحاسـبنى على أنوثة منقوصة..

مضت ثلاثـة شـهور وهـو مبهـور بقفزاتـى الهائلـة فـى اتجاه الشفاء, وأخبرنى أن نساءً كثيرات يستغرقن سـنوات طويلة ليصلن لتلك القناعة النفسية بما حدث..

أجزمت له أننى فقط أرغب فى تجاوز الألم وأستعيد حيوية جسمى لأكتب ولأن لدى عددا من المخطوطات هم أبنائى وبناتى الذين أخشى أن أموت وأتركهم . أكد لى أن بعد جلسات الكيماوى سوف تستقيم الحياة وسوف استعيد شعرى ونضارة وجهى ودفقات الابداع الجميل..

كان الحوار بيننا يجوب آفاقا عديدة ..تحدث معى أكثر من مرة فى مسألة تناسخ الأرواح وكنت أستشعر انها بالونة اختبار يقدمها إلىّ حين ورد فى إحدى قصصى شيئا من ذلك , فأخبرته أننى لا أخشى الموت، فربما بعثت من جديد فى صورة قطة أو طائر أو عصفور .. تلك الكائنات التى أحب أن أجىء الحياة مرة أخرى من خلالها..وربما كانت الحياة التى نعيشها مجرد بروفة. الغريب أنه كان يخالفنى الرأى، حتى رأيته ذات نهار يسر لى بأنه هو نفسه نتاج بعث جديد هكذا يعتقد. أجزم لى أنه يحمل فى جسده النحيل روح عمه "عيسى" المتوفى والذى لم يره مرة واحدة، وحين وصف يوسف لأبيه عم غطاس" تفاصيل بيت أخيه "عيسى"لم يصدق الرجل فقد كان يوسف صادقا تماما فيما وصف من تفاصيل بيت عمه. حتى أن بقية الاشقاء كانوا يسألون يوسف عن أشياء كثيرة تخص شقيقهم المتوفى وكان يدلهم عليها. لكنهم فيما بعد راحوا يلقونه بالعته والجنون بينما ينادونه وقت الحاجة بالعبقرى والملهم ..

ظل يوسف يمدنى بأحدث الكتب لأقرأ بكثافة شديدة فى فترات ما بعد جلسة الكيماوى الذى كان يحيلنى إلى كيس من القطن المتراخى فى مرتبة قديمة.. فصارت الخيوط تمتد بيننا دون أن تفصح عن ماهيتها ..على الرغم من أن ثمة مشاعر تتبلور تجلياتها فى الأفق بأن شخصا ما يستوقفه ألمى بينما أصدقائى وأحبائى الذين كنت أعول عليهم غابوا أو غيبوا.. كنت أستشعر أن الانسانة التى بداخلى تبحث عن منطقة فى الأخضر واليابس بعيدا

ArabWorldBooks.com

عـن الغـرق ومـا أن واجهتـه ذات مـرة هروبـا مـن مشـاعر طاغية عندى وعنـده بأنـه مثـل أخـى أو مثـل إبنـى حتـى تغيرت ملامحه وقال بعصبية..

ـ حبينى بطريقتك لغاية ما نعدى الأزمة..

بدوت لنفسى مثل طفلة جرحتها حركـة شـقية وهـى تقطف زهرة .

كانت أمى تدهش هى الأخرى لذلك النصرانى(بلغتها) الذى كرس نفسه مسيحا ليشفينى.. فلا يدخل البيـت إلا بالترمومتر وجهـاز الضـغط والأدويـة وابتسـامة حنـان ولهفـة للاطمئنان. كان يوسف يبادر بمعالجتها اذا ما أصابتها بـوادر نزلة برد خشية نقل العدوى.

بعد الجراحة مباشرة كان يوسف" هـو الـذى يغيّـر لـى على الجرح وكنت احس بيده بلسـما شـافيا. نعـم الوحيـد الذى جعلته يرى الجرح كاملا .. كنت أقف أمامه دون خجل بفائق القوة رغم الضعف والهزال، فى الوقت الـذى خجلـت حتـى مـن أمـى وأختـى. رفضـت أن يريـا الجـرح المخـيط بطريقة تـرزى خائـب، لا يعـرف البـدايات الأولـى مـن خبـرة المهنة ..ترك تهدل اللحم كـتلا مخيطـة فـى فـراغ الثـدى.. كنت أشعر أن كيمياءً جديدة تتشكل فى روحى..

ArabWorldBooks.com

والألم مرة أخرى..

لم أكن أدرى أنه بعد مرور عـام علـى زلـزال اكتـوبر .. أجد نفسـى أمام احتمال زلزال آخـر.. عبـر المتابعـة كـإجراء وقائى وجدت نفســى بـين لحظـة وأخـرى مطالبـة بالسـير فى نفس الردهات المعتمة وعمل كم هائل من الفحوصات والآشعات والتحاليل..

كعب دائر مرة أخرى ليثبت كل عضو براءته تمامـا مـن احتمال الإدانة مرة أخرى.

قالت أختى منال

ـ سيحدث هذا كل عام..

ـ الله يطمئنك..

خيانـات الجسـد قائمـة طـول الوقـت.. حتـى حـين تكشـف لـى الاصـابة بفيـروس الكبـد الوبـائى أدركـت أن الخيانة ممكنة ومحتملة وواردة ..

كم هائل من "الشكشكة" لعمل تحاليل دلالات أورام ووظائف كبد ووظائف كلى وصورة دم كاملـة وموجـات فـوق صوتية علـى الـبطن والحـوض وآشـعة عاديـة علـى الصـدر

ArabWorldBooks.com

وأخرى مقطعية على فقرات الصدر توضح الضلوع ومسح زرى على العظام.

قررت شراء ستارتين فى طريق العودة من المستشفى، أحتاجهما لحجب الرؤية عن الآخرين مع الإبقاء على ضوء الصباح الغزير..

لم يبرأ الكبد من فيروس "سى" .. بالتأكيد جاء عبر العلاقة مع الدم وتحاليله داخل مستشفى الصراع فيه على أشده بين المرض والمال.. شىء مفجع.. أدخل لعلاج مرض أخرج به ومعه مرض آخر هدية.. تماما كالمؤسسات الرأسمالية الحديثة فى تسويقها للراكد من منتجاتها الاستهلاكية..

طلب الطبيب تحليل آخر يحدد تاريخية الفيروس ونشاطه. أخبرتنى الموظفة بموعد استلام نتيجة التحليل بعد أسبوع فوجدتها فرصة عبقرية لإزاحة الهم والكدر. ففكرت فى شراء الستارتين وتركيبهما والاستمتاع بجمالهما حتى لو لن يمتد عمرى إلا لأيام..

توجس الطبيب الاخصائى من تلك البؤرة التى أظهرها المسح الزرى على العظام فطالبنى بعدد آخر من الفحوصات والآشعات..

فى بحر شهر واحد صرت امرأة مشعة حتى النخاع .. وأخيرا جاءت طبيبة شابة وعصبية لم أرها من قبل، تضاف لكم الأطباء الذين يقولون عن انفسهم انهم كريمة المجتمع. بدا أنها تفوق ـ فى الخبرة وقوة الشخصية ـ زميلها الذى يواجهنى دائما بكلام جميل ومطمئن وغير منطقى، مثل مخدر.. هكذا بدا لى ولصديقتى الجميلة "حياة". فأكدت أن هذا ليس ورما وربما كان كسرا وأن على أن آخذ مسكنات وأذهب إليها بعد شهر لتحاليل جديدة.

كان لابد من عمل آشعة جديدة فى مكان آخر واستشارة طبيب آخر .. مبنى معهد الأورام أشبه بخلية

نحـل بـائس ومعتـل، والمشــهد بتفاصـيله مـع اســتبعاد الشـكل المعمـارى الفخـيم والعصـرى هـو تجليـات فاضـحة للفقر والجهـل والمـرض .. ثلاثيـة القهرفـى العـالم الثالـث. والذى ينظر للوهلة الأولى لكل هذا الزحام المتماسك مثل كتلة، يدرك على نحو ما أنه تم سرطنة مصر كلها..

كنت أكابد مـن أجـل تحييـد عينـى عـن عيـون النـاس ووجوههم وأجسادهم الطافحة بالشحوب والسأم والـوهن بغيـة التركيـز بحثـا عـن الـدكتور فـؤاد.. انقـذنى مـن ركـام الأجساد المعتلة بنفس علتى وألقى نظـرة فاحصـة علـى الآشعات والتحاليل فى ضيق المكان ثم أخبرنـى أن كاتبـة تقرير الآشعة المقطعية توصى بعمـل آشـعة علـى فقـرات الصدر لأنه يصعب أيضا تحديد شيئ..

أمسكت بخيط جديد للأمل ربما كـان الأخيـر وخرجـت أجرى إلى سـيارتى الصـغيرة البيضـاء فلـة.. وحـدثتها بأننـا حقا سنعبر هذه الحيـرة مثلمـا عبرناهـا مـن قبـل وحـدثت حياة عن ضرورة شـراء السـتارتين فـأخبرتنى أنهـا لـم تعـد طعام الغداء لأولادها وجريت لأوصلها وأعود إلى بيتى ..

بدت روح صديقتى "حياة" قد غامت حزنا للكلام الاول للطبيب إلا أننى رحت أخفـف عنهـا. كـان الطريـق مزدحمـا وقـد أفصـحت الحكومـة وأعلنـت عبـر شاشـات التليفزيـون والفضائيات عن حقيقة وجـود فيـروس أنفلـونزا الطيـور فـى مصر.

مرض آخر هدية..

خرجنــا مــن منطقــة معهــد الأورام والقصــر العينــى ومستشـفى الفرنساوى وكابوس المستشـفيات والأمـراض وفتحت الكاسيت بصوت فيروز الـذى انطلـق يبعـث درجـات تكشـف عن قدر من الود تجاه الحياة برغم صعابها. وحـدثت نفســى بضـرورة تغييـر ســير الكاتينـة لسـيارتى فلـة قبـل استكمال بقية المشاوير..

عند الميكانيكى الذى عرفنى عليه طـارق الرفـاعى ـ اوصانى بـالرن عليـه كمـا اتفقنـا ـ انتظرتـه حتـى جـاء ثـم

جاءت مرفت ابو بكر وخالد جودة فريق الادباء الشبان بنادى 6أكتوبر.. وجلسنا وكأننا فى ندوة.. راح كل منهم يقرأ قصة ليستمع فى حساسية شديدة إلى آراء الجميع فيها ..يضحك طارق قائلا: حتى عند الميكانيكى نعمل ندوة..

تذكرت حين لجأت إلية حين نامت فردة كاوتش سيارتى جاء وأتى بالعامل وما ان بدأ يعمل حتي رأيت طارق يصر على ان يقرأ لى آخر قصة كتبها.. أخذنى الميكانيكى على جانب وسألنى وهو ينظر لفلة سيارتى الصغيرة:

ـ تبيعيها...؟

أبتسم وطارق وهو يؤكد إنها احدى بطلات قصصى وأنا أؤكد له انها أهم بطلات حياتى..

وفى الشارع فتحت أغنية منير.. " لسة الأغانى ممكنة".

وجه رجل يبتسم لى فى الزحام ويطالبنى بعجلة للأمام حتى تستطيع السيارة التي في الخلف دخول الشارع الشمال ففعلت. أفرح حين يبتسم بشر لا أعرفه فأتفاءل ويدب الأمل فى أرجاء نفسى مرة أخرى.. يطل أمل مغاير ..نعم سأشترى الستائر.

الآشعة فى يد الدكتور علاء يونس الجراح الذى اجرى لى العملية وأوصانى بعمل آشعة المسح الزرى بعد عام لا يرغب فى الجزم بشىء ويطالبنى بعمل آشعة عادية على الفقرة الحادية عشر كما طلبت طبيبة الآشعة.. عدت للدكتور الشاب الذى أستشعر فيه طفولة المهنة وبدائيتها.. لا يستطيع أن يبدى رأيا منفصلا عن رأى إستشاريته التى لم أرها منذ عام.. حدثها فى التليفون وأوصته بالتنبيه علىّ بضرورة عمل آشعة مقطعية أخرى....بدت لى كمن تصف طبخة أو وصفة بلدى لمريض بالسعال. للمرة الاولى أرى أطباءً يعالجون مرضاهم بالتليفون، تطفر فكرة العلاج عن بعد مثل التعليم عن بعد

والزواج عن بعد وممارسة الجنس عن بعد وكل العلاقات التى يطفح بها زمن العولمة....
كانت معى هذه المرة سلوى عبد الباقى ، جزم لى بعبثية ما يحدث وأنها حقا صارت تشك على نحو كبير فى قدراتهم المهنية..

أجريت الآشعة بعد أن حقنتنى الممرضة بمحلول الصبغة ودخلت إلى الغرفة لأتمدد تحت الآلة الكبيرة التى تشبه هى الأخرى وحش معدنى كبير.. كنت أستشعر الألم مصحوبا بالحزن فنحيت مسألة شراء الستائر جانبا.. ومالك الشقة يفاجؤنى من آن لآخر بمشتر يرغب فى رؤية الشقة، يتابعنى مع زوجة مثل حريم السلطان أو جوارى القصر بعيون تصر على اننى أنا أيضا ـ مع الشقة ـ مطروحة للبيع ..

طال الألم وبدأ يفصح عن ضرباته فى ظهرى .. كان اشبه بشنيور يحفر ممرا فجافانى النوم ... ظل يتصاعد على مدار شهرين حتى صار مثل طعنة غير قادرة على انتزاعها فتكدر النوم والسير والجلوس والحياة بطعنة.. ليصبح ظهرى خصم آخر حليف للمرض..
ناديت الجناينى وطالبته بغسل وجه "فلة" لحين الانتهاء من الآشعات ، وجهها المغسول جيدا فى الصباح يزيح مشهد الكآبة والطعنات ليبان بياضها ناصعا.. قررت وحياة الذهاب لشراء الستائر..

ArabWorldBooks.com

كبد الحياة

الـذهاب الـى المستشــفى يعنـي حالـة مـن الجلـد والتعذيب بسوط يوخز ويؤلم ويوجـع ويهـين. مجـرد السـير في ردهات المستشـفى بغيـة الوصـول الـى مركـز الأورام يعني التنكيل بالروح والعقل والجسد..لذا أظـل أفـر وأهـرب وأجرى وأبحث عن مزيد من الحيـل والأكاذيـب لتأجيـل يـوم المتابعة أو إلغائه.. كنت أبدو لنفسي وربما للآخـرين مثـل تلميذ خائب يكره المدرسة.. وكراهيتي للمستشفى صار لها تاريخ وتراث من الألم والضعف والوهن والهزال فضلا عن صــعوبة الســير وحــدي علــى الأرض والطرقــات..فطن أصـدقائى لهـول المهمـة علـى نفســى فتبـادلوا علـى مرافقتى.

ArabWorldBooks.com

على طول الطريق داخل المستشفى أرى العمال والحرفيين مازالوا ينظفون الشوارع ويقلمون الأشجار ويطلون المباني وينظفون الزجاج وكان عليّ أن أتأمل ما يضيفونه من جمال, لكن المستشفى ليس بالصغيرِ لتختزله العين فى كادر واحد ...أثبت المشهد وأظل أرقب الحياة فى المستشفى وهي تنشط رغم المرض الذى يترنح فى زواياها..

بعد انتهاء شتاء الآلام واختفاء عدد غير قليل من الأصدقاء بالموت والزواج والسفر والخوف والفزع والتشاؤم وزهو المناصب واختفاء آخرين بلا وداع أو سلام باستثناء قلة قليلة أجريت اتصالاً تمهيدياً مع الطبيب حول لقاءٍ معه فى مركز الكبد, ومن أجل ذلك لابد من العبور بقنوات عديده أولها الحصول على خطاب يغطي نفقات اللقاء وتوابعه..

نفس المشهد أكابده دائما من أجل تفادي وجوه النساء في ثيابهن السوداء باكيات حزينات ينتظرن الصلاة على عزيز لهن في مسجد المستشفى, المختبيء فى عمق جراج السيارات مثل سر موجع.. فى كل مرة أتجنب رؤية المشهد فأحرص على طيه فى لمحة خاطفة....

صارت الحياة فى عيني كادر سينمائي ومشاهد وإشارات أستدعيها وأثبتها وأحركها.. مشاهد خاصة جدا يتم ازاحتها من كوادر قنوات التليفزيون والفضائيات والذاكرة.. مشهد عزاء، عملية دفن في المقابر ، قطة ميتة ، وجه يحتضر ، غرفة العمليات ، مشاهد الحب بين الغنى والفقيرة في الأفلام العربية القديمة .. كلب ميت، مشاهد القتل والعنف على وجوه جنود الاحتلال هنا وهناك.

صار المرض والألم خبرة لها أدبياتها الخاصة..
قال جان جينيه ذات مرة..

ArabWorldBooks.com

"لكل فرد جمال خاص به، وأصل هذا الجمال هو الجرح المتفرد، هذا الجرح مختبئ ومكنون داخل كل إنسان"..
كلمات عبرت عنى بصدق وتحفزنى لأعيش الحياة قفزا على الأحزان ، متخطية كل الجروح وكل المصاعب وكل الآلام..

قد لا أستطيع مقاومة كل مشاهد العنف فى الحياة فألجأ لتحجيم محيطاته وتدفقها. سيظل لغز الموت والخلود والسلام والأمان والحب والحنان زمنا مؤرقا لى مع امتداد الوجود. هذا الوجود الذي لايقوم ولا يصبح له معنى بغير وجودنا.
فى التليفون حاصرنى مرة أخرى مالك الشقة المهندس ماجد ضخم الجثة "عريض المنكعين شلولخ" هكذا كان يبدو لى ولم أره إلا مرة واحدة يوم كتابة العقد بأنه يرغب فى بيع الشقة وسوف يرسل من يتفرج عليها.

أعجز عن الإمساك بلحظة آمنة, لحظة بلا ألم أو عنف أو قهر أو ضجر أو سأم .. لم تعد تروق لى لعبة استرجاع الماضي والنفاذ إلي جوهر المستقبل الذي لم تعد تحيطه هالة من الغموض.. الوضوح الفج والجارح والكاشف يكتنف كل شيء.. أرهقتني الأسئلة وتلح علىّ في رحلة بحث مضنٍ عن بديهيات أخرى ..

كان في استقبالنا ، أنا وحياة. (لا بدّ لي من الإشارة إلى أن حياة محمود كانت زوجة صديقى الشاعر الذى شمله اختفاء الأصدقاء بالزواج ـ من أخرى طبعا ـ والخوف والفزع لآخرين).
أمام المركز بشر يجلسون على مقاعد الحديقة الصغيرة التى تذكرك بحديقة المشرحة..نادرا ما يحفل ذلك النوع من الحدائق بأشجار أو زهور أو حتى مقاعد.. ..البساط الاخضر مجرد نجيل شاحب اللون منحول مثل رأس أصلع..

ArabWorldBooks.com

فى المسافة ما بين مركز الأورام ومركز الكبد وعلى ناصية حديقة المشرحة طفرت الأرض بمشهد غريب.. عدد من النساء ذوات الثدى الواحد قادمات للمتابعة.. واريت عينى عنهن إلى قطة ميتة وعدد من الهررة واقف وكأنه يقيم سرادقا لتلقي العزاء .. المشهد له هيبته وجلاله الخاص ولا أحد من المارة ـ مرضي أو أصحاء ـ يستوقفه الحدث. الكل يجري أو يلهث أو يستنهض الخطى لخطوات كثيرة قادمة فى سلم الاجراءات..

هفت روحى للمشهد فكل الكائنات الحية تتعاطف مع بعضها.. طمأنت نفسي التي صارت تؤمن على نحو وآخر بتناسخ الأرواح، أنني حين أموت سأبعث من جديد فى جسد قطة.. وأن الموت فقط يجىء حين أكف عن الكتابة.. فعل المتعة الوحيد فى الحياة التى طالت أسوارها وانخفض سقفها وضاقت جدرانها..

ابتسمت صديقتي الدافئة "حياة" لمشهد الهررة فى عزاء القطة وقالت:

ح يتجمعوا وياخدوها يدفنوها..

نظر الدكتور خالد قائلا وهو يخفي غضبه..

ـ شوفي دكتور كبد لو سمحت..

قالها وهو يتوجس باحثا عن صيغة مناسبة.. وفى حركة استعراضية كما بدا لي, نظر إلى بقية نتائج الآشعات والتحاليل..وقال

ـ كلها معقولة..بس شوفي دكتور كبد أرجوكي..اللى بعده..

كان يجب أن أتبخر على الفور من غرفة الكشف ليدخل مريض آخر على كرسي بعجلات، يدفعه ابنه مثل ملاكم أو مصارع والرجل نفسه يبدو عليه أنه من بقايا زمن فتوات نجيب محفوظ..

تحرص "حياة" على ضبط انفعالاتها كلما داهمنا الطبيب بأخبار سيئة. أمسكت بيدى وهدأتنى..رقتها

تنسـاب بعذوبـة وحنـان ونحـن نتجـاوز الردهـة الطويلـة المرصوصة بأجساد معطوبة ونظـرات وسـأم. ردهـات مركـز الأورام لا تهـدأ مـن المرضـى والمـرض.. يتوافـدون خلـف بعضـهم.. كثيـرا مـا أتجنـب النظـر إلـى الوجـوه والمرضـى الكثيرين حتى أتفادى تنويه جرائد المعارضـة بانتشـار باقـة الأمـراض القاتلـة.. الايـدز والسـرطان والفشـل الكلـوي وفيـروس الكبـد الوبـائي وغيرهـا، ذلـك اليقـين المهـين والقاسـي وشـديد الألم بأن قوى شـريرة عكفت عبر أربعـين عاما أو خمسين على الفتك بالجهاز المناعى للمصريين..

تتوالى خيانات الجسد وخيانات أخرى ..

بدأت خيانات الجسد بالسكر ثم الضغط ثـم السـرطان وها هو الكبد ترتبك أنزيماته.. ما الذى يحدث.. أهو تمـرد الجسـد حـين وجـدني أغيـب احتياجاتـه وأنصـرف عنهـا بمحاولة تحقيق سـواء آخر وصحة نفسـية وأدبية أخرى .. أجعـل إذنـا مـن طـين وأخـرى مـن عجـين والواقـع الفـظ القاسـي لا يوقـف علـى نوافـذي إلا رجـال كـالجراد الميت..ضعيف ومتهالك لكن رغبته فـى الفتـك مـا زالـت قائمة..

أتذكر مقولة "فرويد" .." ما يُقمع لا يختفي لكنه يعـود دائمـاً كيمـا يزلـزل كـل البنـاء القـائم، مهمـا كانـت درجـة الاستقرار التي يبدو عليها".

تأتيني من الداخل كلمات الدكتور خالد

ـ شـوفي دكتور كبد....

ويواتيني الحلم الغريب بأنني أسير بسيارتي الصغيرة "فلة بنت خوخة" فى الطرق والجبـال الرمليـة وقـد أجبـرت على السير.. ويعمل العقل عملياته الذهنيـة لإحـداث نـوع من التماثـل بـين الحلـم وتـداعيات الواقـع وعثراتـه والحلـم المغدور .. صار هو الآخـر جبـالا مـن الرمـال الناعمـة تطـرح دائما تحدي السير بين دروبها..

ArabWorldBooks.com

المرضى فى مركز الكبد والجهاز الهضمى يختلفون على نحو ما عن المرضى فى مركز الأورام..والفارق في شدة وطأة المرض على الوجوه والأجساد..

والموظف ذو الملامح الجامدة يؤكد على ضرورة خطاب من جهة العمل يوجه لمركز الكبد فى نفس المستشفى.. وموظف الشركة مثل موظف المستشفى .. رضع البيروقراطية الادارية مع الجهل والفقر والقمع.. كل على طريقة دوخينى يا لمونة.. والليمونة دائما واحدة ونحيلة وهزيلة فى بلد قرفانة..

أخيرا حصلت على الخطاب الذى استدعى الإحساس بوطأة المرض ومرارة البيروقراطية الادارية وقابلت استشارى الكبد.. رجل مثقف على نحو ما ، بشوش الوجه خفيف الظل، حين جلست إليه أجّل مقابلة المرضى والممرضات ليستمع لى فقط.. وحين استعجلته الممرضة.. هتف فيها ..

ـ سيبينى يا عبير أول مرة أقعد مع ست مثقفة..

تذكرت طبيب الأورام الذى حدثته عن درجات من التماثل بين سرطنة خلايا الجسم وخلايا المجتمع عندما رحت أرى أعدادا هائلة تموج فى ممرات مركز الاورام ومعاهد الأورام هنا وهناك فقال.

ـ انت ناوية تكتبى رواية خيال علمى..

رأيت أن الأطباء يصرون على الحط من قدر وعى المريض مهما كان شأنه..شأنهم فى ذلك شأن الملوك و الحكام والمسئولين والجبابرة.

بينى وبين طبيب الكبد جرى حديثٌ لطيف عن الثقافة والمرض وأمراض المثقفين والكتاب ...

.. بهتت صديقتي حياة وهي تراني وأنا أنحي جانبا سلطة الطبيب وأحاوره كمثقفة..عن أمراض الفقر والجهل

والمـؤامرة الكبرى..حتـى صـار المـرض يحتـل مسـاحات خرافية من الحياة ..

وجهه الوسيم يطرح وافر النعمـة والرغـد الـذى تربـى ونشأ فيهما.. بشرته الوردية وعيناه الواسعتان والمفرطتان فـى عسـلهما تمنحانـه فرصـة جليـة للعـيش بـين عيـون النساء..لم أستثن اتجاهاته النسـائية والتـى استشـرفتها من نظراته وحركة كتفيه. حتى ابتسامته تضع من يتعامـل معه بين قوسين من عالمه.

بعد سجال طويل حول أمراض الفقر فى العالم الثالث طمأنني بأنه حتى لو أنني حقا مصابة بفيروس سي فإنـه سوف يعالجني..

غادرتـه وأنـا فرحـة بـأنني أسـير طريقـي بمنتهـى البساطة وقد طلب مني بعض التحاليل..

بدت حياة تضحك كثيرا لطريقتي..

علمتني الحياة لعبة الفقد والبدائل فصرت أتعامل مـع جسدي وكأنه سيارة وكلما تعطل بها شيء أنزل وأصلحه ثم أجعلها تسير بى..

للمرة الألف يصر موظـف الشـباك علـى ضـرورة وجـود خطاب آخر من الشركة لتغطية نفقات التحاليل....

كـــل بمســـئوليته يصـــر علـــى هلاكـــي واسـتهلاكي..والقطة مازالـت ملقـاة علـى الأرض يحيطهـا الهررة وهـم ينظـرون إليهـا ويتـأملون نظـرات المـارة.. تزايـد عدد الهررة وكلها تنظر للقطة الميتة ...

قلت لحياة..

ـ ح يعملولها عزاء ..

ردت...

ـ أو بيجمعوا بعض عشان يدفنوها..

موظفة التأمين الصحي فى الشركة لا ترغب فى ممارسة إنسانيتها ..تمارس فقط حضورها الغائب طوال الوقت كموظفة مقهور لا تفعل شيئا سوى ممالأة رؤسائها..وعلى الرغم من اننا تعينا معا إلا أنها لم تبدى تعاطفا لتوفر عليّ معاناة الدوران كعب دائر بين بيتي في أكتوبر والمستشفى في الساحل ومقر الشركة بباب اللوق .. بعد مشاجرة تطلبت اللجوء للقيادات العليا فى الشركة لمناشدة انسانيتهم لا واجبهم المهني حصلت على الخطاب.

فى موعدى مع طبيب الكبد أخذت نتائج التحاليل وذهبت اليه وتجاوزت مشهد العزاء فى القطة الميتة وقد زاد عدد الهررة .. هررة قذرة وشرسة .. نقدت حارس الطبيب (رجل نحيل طويل هالك ومتهالك ينظم دخول المرضى) بمبلغ لا بأس به حتى لا يتركني لآخر الطابور..

كان الطبيب يفرط فى ابداء مظاهر الرعاية والاهتمام بمريض ريفي تبدو عليه مظاهر النعمة ويمنحه "كارت" ليعرف الطريق إلى عيادته الخاصة..

ابتسامته مثل لافتة كبيرة تجتذب بأضواء النيون والألوان ومباهج كثيرة الناس. أبدى حفاوته وما أن رأى نتائج التحاليل حتى سألني ..

ـ عند حضرتك تأمين..؟

ما أن سمع اجابتي حتى انبرى يكتب كما هائلا من التحاليل الأخرى أزعجني منها أخذ عينة من الكبد.. فى أقل من ثانية تمت ازاحة وجه الطبيب ذي البشرة الوردية وتثبت وجه تاجر أو حرفي أو منادى سيارات .. أنا وآلام البشر بالنسبة له "سبوبة" وما رقته وأناقته وابتسامته ولغته إلا مجرد "عدة شغل.." و "بزنس" بلغة العصر.

انصرفت غير راغبة فى تحقيق كل ما طلبه..وبعد عناء في محاولة لتفادي الصدام المتكرر بأكتاف وأجساد

المرضى الفقراء والمعوزين خرجت من العيادة .. كانت القطة الميتة مازالت ملقاة على الأرض وحولها عدد كبير من الهررة يتبادلون النظر بينها وبين المارة..

بدا المشهد مؤثرا وداهمتني رغبة في البكاء منعتها حياة وهى تربت على كتفى وتحمل عنى أثقالى ..

انتبهت إلى أننى نسيت ملف نتائج التحاليل والآشعات لدى الطبيب الاستشاري فعدت ثانية وأنا أتفادى الصدام باكتاف وآجساد فقراء المرضى..

حين خرجت رأيت سرب الهررة يتناوب على مضاجعة القطة الميتة على الملأ وفى الفراغ المحدود بأعين المارة..

ArabWorldBooks.com

تحاليلى يا بطة....

وبطة هى صديقتى الجميلة فاطمة التى تسير مثل البطة وأدللها بمناداتها ببطة وبطبوط وبطاطة وبطاطس، وتصر أن تحمل عنى شيئا من أثقالى، مثل حقيبة نتائج التحاليل وصور الآشعات خلال دورتنا الكاملة بين ردهات وطرقات وممرات وسلالم الألم فى مركز الأورام..

ذهبت أنا وبطة فى ثيابنا الرجالية كما تبدو للآخرين وأنا حليقة الرأس كما أبدو من آثار الكيماوى وشعرها الملفوف كعكة كبيرة فوق رأسها وكل منا بوجه خال من أى "ماكياج" إلى عالم لا تطربه سوى صورة المرأة الخانعة بمزاجها الهادئ وأناقتها المفرطة، ووجهها الطافح بالألوان في مقابل مداهمة عيون الرجال ..أى رجل حتى لو كان تافه القيمة ، المهم أن يكون مكتوبا فى بطاقته "ذكر"..

لم آبه كثيرا بصورتى فى عيونهم ..كنت امرأة شرسة فى كامل تجلياتها للدفاع عن حياتها، كي تبعد عن

ArabWorldBooks.com

نفسها، ولو جزئياً شبح الموت حتى وان كان هذا الشبح هو الذى سيريح الجميع.

أكد الطبيب فى آخر متابعة على ضرورة إعادة التحاليل بعد شهر.. وطلب صورة كاملة للدم ووظائف كبد ووظائف كلى ودلالات أورام..
وجوه النساء ذوات الثدى الواحد تراوغنى أم أننى أروغ من احساس أقرب إلى شكشكة الإبر بأننا جميعا نساء الثدى الواحد.. نساء بائسات..

يذكرنى الطبيب الاخصائى ببورتريه فان جوخ للدكتور جاشيه.. أصدق صورة للمزاج السوداوى فى العصر الحديث، فالثنايا بين مقلتيه مع عقد الحاجبين،مع المنخفض ما بين الأنف والفم أكثر وضوحا، واصفرار الجلد وميل إلى النظر إلى الأرض,هى علامات وأعراض ما زالت لها أهميتها فى تشخيص الاكتئاب..

فرحت أننى سأعيش شهرا فى أجازة من الذهاب إلى المستشفى والسير فى دروب وممرات الألم وشكشكة الإبر والنوم تحت الآشعات والدخول فى بطن الأجهزة الضخمة مثل دودة كافكا الهائلة والتى تشبه آلات التعذيب أيام النازية، أجهزة المسح الذرى والرنين المغناطيسى والأشعات المقطعية والموجات فوق الصوتية، امتلأ جسدى بإشعاع كأننى مؤهلة للصعود للقمر أو كوكب آخر أو للدخول لمفاعل نووى..

وبالفعل رغم الألم والمسكنات الفاشلة حاولت أن اعيش حياة عادية وأنحى جانبا كل ما هو خارج الحلم والأمل ورحت أقرأ وأكتب كثيرا وكأننى "أكتب فى آخر زادى" كما تقول أمى، أكتب كأننى سأموت غدا وتذكرت مقولة قرأتها لأحد عباقرة الفكر والأدب " اقرأ كأنك تعيش أبدا وأكتب كأنك تموت غدا..

ArabWorldBooks.com

عشت حياة ملؤها درجات هائلة من البهجة، وبعد انقضاء الشهر ذهبت مثل تلميذ مكره على الذهاب إلى المدرسة لإعادة التحاليل مرة أخرى..

بعد مهاترات على نفس أروقة وسلالم الألم وكم العتمة التى تتراكم مثل طبقات جيولوجية فى الطرقات المقبضة أتيت بنتائج التحاليل..

أخذتها للأخصائى الذى يذكرنى بدكتور "جاشيه" ، وطرت وخلفى بطة تترجرج .. كنت أرغب فى أن يطمئنى أحد.

كان خارجا لتوه من غرفة العيادة الخارجية وحين رآنى أعاد النظارة الطبية على عينيه ونظر إلى الأوراق.... دائما ما أراه يضفي على نفسه سمت المفكرين والحكماء ..

ـــ دلالات الاورام عالية وانزيمات الكبد عالية والسكر.....و... و

تذكرت أيام كنا فى الدراسة ونغضب من الصفر ونطالب حتى بنمرة على الخط..

قال الدكتور ـ بس غريبة ..المناعة عالية..

التقطت من يده نتائج التحاليل وطرت فرحة أن شيئا فى جسمى لا يزال سليما, وخاصة جهاز المناعة , جهاز الأمن القومى للجسم وبطة إلى جوارى غير فاهمة.. قلت لها..

ـ ياللا ناخد فلة ونطير..

آخذنا "فلة بنت خوخة اللى جت بعد دوخة" وطرنا وأمام كشك لبيع الزهور توقفنا ثم طرنا مرة ثانية وعلى "تابلوه" "فلة" "باقة ورد أحمر وأصفر وبنفسج ونثار من زهور بيضاء صغيرة ورفعت صوت المسجل بأغنية محمد منير " نعناع الجنينة" وبطة تردد خلفه "نعمات البحيرى" على نفس إيقاع لحن الأغنية وكانت ضحكاتنا تملأ الشارع ونساء كثيرات فى السيارات المارة يبدين وكأنهن

ArabWorldBooks.com

مقطوعات الألسن والأنفاس إلى جوار أزواجهن. كن ينظرن بتأفف وربما بغيظ لبهجتنا التى تخترق العادم والضجيج والزحام والحزن والكآبة..ولا أحد يدرى أننا نطير داخل قفص..أو كمثل غريق مازال يتنفس تحت الماء..

اقتربت فتاة شابة بسيارتها القديمة وسألتنى ..

تبيعيها؟

تقصد "فلة"..

ما الذى يحدث الجميع يرغبون فى انتزاع فلة منى .. حتى فى الحلم..هناك حلم يتكرر كثيرا.. أن اكون فى مكان وذاهبة لآخذ سيارتى فلا أجدها وأظل أبحث فى ذاكرتى عن المكان الذى تركتها فيه وأظل أهرول يمينا ويسارا بحثا وقلقا وتوترا على سيارتى.. لا أرغب فى افساد لحظات البهجة القليلة بين ركام السأم....

نزلت وبطة لكافيتريا هادئة على النيل.. فنجان قهوة يكمل نشوة ابتهاجنا بقياس نسبة المناعة .. تدخلنى القهوة فى دوامات لذيذة رغم مرارتها..أتذكر لحظة اكتشاف راعى الغنم الأثيوبى "كالدى" لحبة القهوة حين لاحظ ابتهاج الماعز والأغنام بعد أكلها لحبيبات داكنة اللون تسقط من الشجر فقام بنفسه بتجربتها فبدأ مثل قطيعه يشعر بالابتهاج والسعادة.

ضحكت بطة ضحكتها التى أحبها وهى تخبرنى أننى مثل التلميذ الذى رسب فى الامتحان وحين عاد قبله أهل الحى

ـ لأ وإيه .. وزع بيبسى على الناس وعاش الحالة ...

وضعت فنجان القهوة ونظرت للنهر الممتد وأنا أتذكر أن أغلب العباقرة فى التاريخ الانسانى، سياسيين وفلاسفة وشعراء وعلماء وفنانين كانوا يرسبون فى امتحانات مدارسهم وأن الذين نجحوا أغلبهم من الأغبياء وهم الذين يحكمون العالم الآن وهم الذين يتصدرون

واجهات المجلات والجرائـد والفضـائيات ليبثـوا ثـراء التفاهـة ورذاذ الغباء .. فلنهنأ بغبائنا وغباء الآخرين..

الحنان الرسمى.....

صـار هوسـا لا يقـاوم ألا يلتفـت أحـد للألـم أو للمـرض والمرضـــى . المهـــم أن تكـــون الأوراق مكتملـــة والإجـــراءات سليمة..الأطباء وطاقم الممرضين والموظفين فى المستشـفى، حتـى الحـارس الـذى صـنع لنفسـه مهنـة داخـل المهنـة لتكـون "سبوبة" وينظم وقوف السـيارات. كلـه يتعامـل بـلا أدنـى تعـاطف، خشـنت أجسـادهم ومشـاعرهم ، ولابد أن تلوح أولا بالمال واحترام النظام والأوراق والإجراءات.

والرأفة بالمريض جملة اعتراضية لم تعد تمر فى سماء أحـد ، ألا يكفى المريض مرضه، يجلدونـه بسلسـلة الاجـراءات والأوراق الرسمية واللف على المكاتـب ونظـرات جامـدة للسـأم والضـجر ، يصعد مبنى وآخر ويسير طرقـات وممـرات وردهـات طويلـة يلاحقـه فيها الوهن والموت فى الوجوه وعلى الجدران وعلى المقاعد.

أتراجـع وأشـــفق علـيهم فـأغلبهم أجيـال جديـدة تفتحـت عيونهم على انهيـارات الحيـاة والغـلاء و الكـوارث والنكبـات والقـبح والزحـام وأصـوات النشـاذ، وســقوط كثيـر مـن القـلاع القديمـة والحصـينة فصـار الألـم والمـرض والفقـر والجهـل والتطـرف ظـواهر طبيعية للغاية مثل البرد القارس فى الشتاء والحـر الفـظ القاسـى

ArabWorldBooks.com

فى الصيف واختفاء الخريف وشحوب الربيع واحتقان الهواء بدخان وغلالات داكنة فى السماء..

حتى أبى اضطر أخيرا لزيارتى كإجراء رسمى لكى لا يعيب عليه أحد وهو الذى ظل طيلة عمره يناصبنى عداءً مجانيا ... حتى أخوتى يرغبون فى اجراءات وأوراق رسمية شأنهم شأن الأطباء والممرضات وموظفى وموظفات المستشفى،وموظفة التأمين الصحى فى الشركة التى ظلت تقابلنى بابتسامة حفظا للعهد القديم فقد كانت صديقتى وقد تم تعييننا معا ..

هى مسئولة التامين الصحى وأنا مريضة بالسرطان.. قالت فى غلظة فجة..

ـ علاجك يكلف الشركة كتير..بعد كدة ح نحولك ع التأمينات الاجتماعية..

ويسقط صوتها القبيح فى جب عميق..

هى الآن احدى البقرات العجاف فى حلم قديم ، تمسك بيدها سلطة تمرير الأوراق السحرية للسماح بعمل تحليل أو فحص أو آشعة أو علاج كيماوى أو اشعاعى أو اجازة مرضية...

هى ايضا مثل أخوتى ينتظرون اجراء الغسل والدفن وإعلان الوراثة، حتى ينقضوا على ما شقيت وغبنت وتعبت وكافحت من أجله..

مكتبة بها أجمل ما قرأت وتمنيت قراءته وبعض الأشياء الصغيرة ..كمبيوتر وطابعة وسكانر وتليفزيون وكاسيت ومخطوطات رواياتى التى لم تنشر بعد.. سيلعب أولادهم جيمز وأتارى على الكمبيوتر الذى كان ذاكرتى وعقلى وخزانة أفكارى، وسيبيعون مكتبتى إلى أقرب تاجر روبابيكيا، وسيبيعون سيارتى البيضاء الصغيرة "فلة بنت خوخة اللى جت بعد دوخة" لمن يدفع أكثر وسينتظرون تكريما لى هنا أو هناك ليتعللوا بأعذارهم للغياب.

حتى أختى الوحيدة والتى تزعم طول الوقت أننى أمها التى ربتها، لا تتنازل عن عالمها ليوم واحد وتأتى لتعد لى وجبة ساخنة أو حتى تجالسنى لساعات.. كدت أضيق بمكالماتهم التليفونية التى تذكرنى بالورود البلاستيكية..

ما زالت ترن فى أذنى كلمات إبن أخى حين كان طفلا صغيرا.. شقتك حلوة يا عمتى ..ح تبقى بتاعتنا لما تموتى..؟

ArabWorldBooks.com

زميلاتى وأخوتى الأعزاء بزوجاتهم وأزواجهم وأولادهم وبناتهم أشفق عليكم من حملى الثقيل الذى طال كثيرا، فلا ترونني أشفى تماما ولا ترونني أموت موتا خالصا ،لذا اسمحوا لى أن أنحيكم جانبا لأى وقت يسمح الله به، فصحبتكم كئيبة ورسمية وليس بها أى دفء أو حنان..أحب صحبة أصدقائى الذين يساندوننى لأنهم يحبوننى وأحبهم وليس بيننا ورق رسمى سيستخدم بعد موتى كإعلان للوراثة. وربما أصبح بعده كاتبة شهيرة فيدر اسمى مالا عبر مسلسلات التليفزيون وأفلام السينما التى قد تروق قصصى ورواياتى آنئذ لمنتجيها ، أما أصدقائى وزملائى فى الكتابة فقد هيأوا أنفسهم تماما واستعدوا بمقالات وقصائد المدح والرثاء، لو أسمعنى أحد شيئا منها لتمسكت بالحياة. سوف يجتمع الجميع وكل منهم بيده أو بقلمه أو بعقله اعلان للوراثة .

الآن هم مختفون تماما، وربما خارج الخدمة . على الرغم من أنهم يعلمون أننى ذاهبة لأدخل متاهة جديدة. القليل منهم أبدى أسفه لانشغاله بالسفر أو بالحرج و ربما للتشاؤم..

جاءتنى مكالمة غريبة من رجل يدعى بأنه المالك الجديد للشقة التى أسكنها. اشتراها من المهندس ماجد المالك القديم دون أن يصر على رؤيتها أولا.. وأنه اشترى شقتين غيرها فى نفس المنطقة، فهذه الشقق لا غبار عليها وأنها مثل الجنيه الذهب..فى آخر المكالمة نصحنى المالك الجديد بالبحث عن شقة أخرى فى نهاية مدة العقد..

ـ بس أرجو ان حضرتك ما تفهمنيش غلط..

أسمحى لى يا نفسى القاسية أن ألتمس للجميع أعذارا فرغم كل هذا مازلت أنظر كل صباح لأرى أن خط الحياة فى كفى لا يزال طويلا، ولم يعد لى إلا الكتابة رياضة روحية فى الوقت الذى يسعى كل شىء حولى إلى نسف الأمان والطمأنينة.

ArabWorldBooks.com

بيان أخير ضد الموت

المشهد في تفاصيله يشي بأن أنوثة هذا الوطن مستهدفة مثلها كما الذكورة.. صرنا نسير على الأرض قنابل موقوتة لا تدرى أى نفس متى تنفجر ومن ينجو .ستكون الصدفة وحدها صاحبة الفضل الأعظم. ربما كانت فاجعتى فى قطعة حيوية من جسدى هى التى هيأت لى شيئا من الخرافة.. وبعد عام بدت بؤرة على العظام ..وبؤرة ثانية .

عدد كبير من النساء بثدى واحد يطمحون فى المحافظة عليه. عفوا نون النسوة لا مجال لها فى واقع مأساوى نعيشه نحن نساء الثدى الواحد.

لذا نأتى فرادى وجماعات للحصول على حصتنا من العلاج الإشعاعى لنخرج للشوارع نساء مشعات تعرضن من قبل للعلاج الكيماوى الذى هو أبشع من السرطان ذاته..

كلنا قادمات وطامحات فى أن تثبت ـ مرة أخرى ـ أجسادنا قدرتها على مواصلة الدفاع عن آخر رمق فى الحياة، بعد أن صرنا نساء بائسات منقوصات الأنوثة كما يبدو فى نظرات النساء قبل الرجال. فكل واحدة فقدت تاريخ صلاحيتها للغواية بمعايير الأمهات والجدات والفلكلور الشعبى، جميعهم لا يرون المرأة إلا حاملة لفيروس "الغواية"..

ArabWorldBooks.com

حين تتم براءة الجسم من أى تخاذل ترتفع زجاجات بلاستيكية لأنواع الكيمو ثربى ..محاليل بيضاء بنفس بياض الأسرّة وعيون الممرضات النحيفات. أختار سريرى إلى جوار النافذة. يحدد لكل واحدة منا مقدار الجرعة وعلاج لتنشيط الكبد باعتباره العضو المنوط بالتصدى..جهاز الأمن القومى للجسم. كلمات صديقى يوسف غطاس فى التليفون تفعل فعلها فى استنفار أدواتى للمقاومة.

يذكرنى المشهد بالأسطورة الاغريقية القديمة التى تعتمد على حياة شعب حقيقي عاش قديما شمال البحر الأسود وكانت نساؤه يشكلن وقت الحروب كتائب انتحارية سببت رعباً كبيراً للشعوب المجاورة. ولم تكن الأمازونيات الأغريقيات يعاشرن الرجال إلا لفترات مؤقتة عن طريق خطفهم أو أسرهم في الحروب والقتال ..فصارت كلمة "أما - زون" تعني امرأة بلا ثدي" لأن الأمازونيات كن يقطعن أثداءهن اليمنى ليسهل عليهن حمل الأقواس وإطلاق السهام ...

احدى الممرضات بدينة وقبيحة الوجه تتعامل معنا بعنف شديد. ترانا مجرد أكوام من اللحم المعطوب والجهد المبذول لإصلاحه غير جاد بالمرة.. فالمستشفى أشبه بمختبر لإجراء التجارب ولا يمكن أن نستثنى مع عدد من إناث الفئران... الطبيب مثل الممرضة لا يكلف نفسه عناء الابتسام فى وجوهنا، فقررنا تبادل الابتسامات والضحكات كنوع من تبادل الأكاذيب اليومية..صرنا أحوج البشر لمثل هذا النوع من الكذب، كما صار بيننا تعارف وصداقة اللحظة الاضطرارية. كل منا تدرك أنها منوطة بذلك منذ لحظة دخولها العنبر.

بعد أن تعلق الممرضة لكل واحدة زجاجة على "ستاند" المحاليل المعدنى بطريقة عصبية وربما بقرف نتبادل النظر وتقول احدانا "حكم القوى" ...

أغلبهن شابات. مازلت أشفق على شبابهن الغض بعد أن بترت ا ثدائهن .. أحدث نفسي أننى أحببت وتزوجت ورأيت بعضا من حلو الدنيا ومرها فما بال هذه أو تلك التي سيحكم عليها بأن تغلق أستار الدنيا على قلبها وجسدها المشوه بأنوثة منقوصة...

بدت كل واحدة تنظر إلى الأخرى وطاقم "السنيدة" من الأهل أو الأصدقاء إلى جوارها. وجدت نفسي وحيدة وضحكت فى نفسى وكأننى فوجئت ..هذا العادى عبر رحلة عمر شاقة وجميلة وحرة.. وحيدة دون طاقم "سنيدة".. ليت أخى عاطف إلى جواري الآن، ربما أنساني مرارة اللحظة. المرارة متمددة في حلقي مثل جثة كلب أجرب مات لأتفه الأسباب. ربما لأنه لم يعرف لماذا يلاحقه الجرب والبؤس..

حدثت عاطف على الموبايل ولم يرد .. ثم وجدتنى "أرن" على أرقام أصدقائى ..كنت أرغب فى سماع أى صوت بشرى لأى من أصدقائى أو معارفى.

على الموبايل تعلل أخى عن عدم حضوره بيقينه الحاد بوجود إحدى صديقاتي معي، لا يعلم أنها تركتنى فى أول منعطف من أجل موعد مع إحدى جماعات التمويل الأجنبى.. أكد أنه سيأتي فطالني إحساس مراوغ بصدقه. جلست "أفر" الجرايد صفحة خلف الأخرى ولا شيىء يغرى بالقراءة أو الاهتمام . أكاذيب في أكاذيب ولا أحد تغريه لحظة صدق واحدة. أعتي الجرائد هي نفسها تتعامل مع صحفييها بفاشيستية. صديقاتي وأصدقائي الذين يعملون بها تنحى أعمالهم جانبا أمام أهواء أصغر مستثمر يدفع ثمن صفحة كاملة لإعلان عن سلعة تافهة، من تلك السلع التى تحملها الشاحنات الضخمة مثل عمارات متحركة أراها من شرفتى وهى ذاهبة لأحد الموانى للتصدير.

الشـابة التـي فـي السـرير المجـاور تـئن أنـات حـزن غريبة.. أزحت برفق الستارة التي تفصلنا وواسـيتها بجـرأة المتحدث من منطقة الترف الآمنـة. علـى الـرغم مـن أن لا ترف ولا أمان أرزح فيه كما يظـن الـبعض، إلا أنها المكـابرة علـى القـدر والمـرض اتقـاء لهزيمـة لحقـت الكثيـرين مـن قبلى.

منذ تكشف لي الأمر قررت ألا أيأس تماما وليحدث مـا يحدث وسوف أعيش لآخر لحظة يمكننى فيها ذلـك. ربمـا هي أيضا جرأة اليائس والبائس والمتعوس وخائـب الرجـاء، تحديدا لست أدرى أيهم أنا..

كـل النسـاء فـي العنبـر مثلـى.. جالسـات أو راقـدات على أسرّة بيضاء بيـاض موجـع والعيـون تسـتجدى لحظـة هدوء، وطفلة إحدى السنيدات قبيحة قبحا لا يليق بطفلـة تملأ المكان ضجيجا بصخب مائع، له نفس ميوعـة الطبيعـة التى تنحاز للأغنياء والأقوياء على حساب الفقراء والضعفاء والأنقياء.

المشهد فى إجماله يذكرنى بألف ليلة وليلة وعفريت المصباح الذي استرخى لزمن طويل في المصباح وعرائس البحـر الجمـيلات علـى الشـاطىء تجـدل الـوخم جـدائلا يمسدن بها وجه البحر. مشـهد نسـاء الثـدى الواحـد فـاق كل خيال..

نحـن جميعـا عـرائس بثـدى واحـد. بعـد الجلسـة ستخرجه كل واحدة وتنفخ فيه من آلامها ثم تحوله لثعبـان ثـم نجـرى فـرادى وجماعـات فـى مظـاهرة مـن النسـاء المشعات في اتجاه بيت أو فيللا أو قصر السـيد المسـئول الـذي مـلأ جيوبـه وخزائنـه بتـرف عمـولات أجنبيـة مرعبـة الأرقام ليملأ المدينة بنباتـات وخضـروات وفاكهـة مسـرطنة وهواء مسـموم وماء فاسـد ورجـال بائسـين بأفكـار فاسـدة ساهموا في قهرنا.. تسببت نفس الأطعمة ونفس الهـواء

ونفس الماء في اخصاء الرجال فى مقابل إزجاء عصبيتهم وعنتريتهم الفارغة..

لم تغف عيني للحظة، كنا نجرى نحن النساء المشعات إلى بيت أو فيللا أو قصر السيد المسئول وهناك وجدناه. تحايلنا على رجال أمنه وأمانه الواقفين يحمونه بكل ما خف وثقل من سلاحثم دخلنا إليه.

كانت كل واحدة قد وجهت ثعبانها ولفته على رقبته وراحت تعتصر روحه وممتلكاته ومقتنيات قصره واسمه ولقبه ويومه وغده.

في آخر اليوم حين رأينا روحه وقد أزهقت تماما وممتلكاته وقد تبددت وقصره وقد تداعى ومقتنياته وقد تناثرت أشلاء رحنا نجرى نحن النساء المشعات فى مظاهرة كبيرة تملأ شوارع المدينة لنرى أنفسنا فى مرايا كثيرة وزجاج فاترينات المحلات نساء غير بائسات.

ـ تمت ـ

مدينة السادس من أكتوبر
مايو 2006

ArabWorldBooks.com

نعمات البحيرى فى سطور..

أديبة وروائية وقاصة مصرية

1. الاسم كاملا : نعمات محمد مرسى البحيرى
2. اسم الشهرة : نعمات البحيرى
3. ولدت بالقاهرة بحى العباسية البحرية فى 1953/6/16ثم عادت مع أمها لتعيش طفولتها المبكرة فى بيت جدها فى تل بنى تميم بشبين القناطر..قليوبية..
4. تخرجت فى كلية التجارة عام 1976جامعة عين شمس شعبة محاسبة..
5. ظلت تعمل فى شركة للكهرباء كأخصائية للشئون الأدارية حتى مرضت بفعل عوامل قهر الوظيفة وعوامل أخرى فى أكتوبر 2004..لكنها ظلت تقاوم اعتلال الروح لتقدم رؤيتها للعالم كتابة وحياة..
6. الكتابة بالنسبة لنعمات البحيرى هى بهجة مدفوعة الثمن من الوحدة والوحشة وتأجيل الأحلام ..

هى كلمة تتبادلها مع الناس حتى تظل معهم مثل خيول جامحة ترفض الانسياق لطرق ممهدة شكلا لكنها وعرة مسدودة..

الكتابة هى رئة أخرى لهواء نظيف.. هى خط الدفاع الأخير فى مقاومة الموات والانزواء والبأس والاحباط .

هى صرخات من القلب الموجوع بسياط الرغبة فى تغيير وجه وروح وعقل العالم عبر تجديد الأحلام وكسر القيود وتبديد الأوهام...

7. نعمات البحيرى من جيل الثمانينات فى كتابة القصة القصيرة والرواية
8. عضو اتحاد كتاب مصر....
9. عضو آتيلييه الكتاب والفنانين.....
10. عضو نادي القصة بالقاهرة
11. عضو جمعية الفيلم....

Arab World Books.com

12. تكتب الأدب ليس لأنه رئة أخرى فى مناخ اجتماعى وسياسى خانق لكن لأن هناك هموما وقضايا كثيرة تتنازعهاا أهمها قضية الديمقراطية وقضية العدل الاجتماعي وقضية الحرية وحقوق المرأة التى تنتهكها النساء قبل الرجال..

13. تكتب الأدب حبا وعشقا لمساندة الحياة ومساندة الحب والحرية ..

14. اكتشفت موهبتها فى كتابة القصة عبر صدفة مدهشة وكانت تكتب مقالات ذات طابع إجتماعى احتجاجا على أوضاع اجتماعية مجحفة بحق المرأة وبحق الإنسان..

15. احتفى بكتابتها العديد من النقاد الكبار مثل ابراهيم فتحى ومحمود عبد الوهاب وفريدة النقاش وصافيناز وفيصل دراج وكاظم وسناء فتح الله والدكتور سيد البحراوى ود.محمد الرميحى وعبد الرحمن ابو عوف والدكتور حامد أبو أحمد ود. فاطمة المحسن والدكتور أحمد الخميسى وطلعت الشايب ومن النقاد الشباب الدكتور مصطفى الضبع والدكتور مجدى توفيق والدكتور أيمن أبو بكر ووائل فاروق ومن الشعراء جمال القصاص وشعبان يوسف وعواد ناصر وحلمي سالم ومن القصاصين والروائيين محمد مستجاب وفؤاد قنديل وعبد الرحمن مجيد الربيعى وأفنان القاسم وذكى سالم وسيد الوكيل ومحمد الفارس وسناء صليحة وأميرة الطحاوى ...واحتفى بها فى الندوات واللقاءات التليفزيونية والاذاعية ادوارد الخراط وسامى خشبة ود.سيد البحراوى ود. منى طلبة وسامية الساعاتى ود.سوسن ناجى..ومن الباحثات الأجنبيات كتبت عنها كارولين سيمور الامريكية وميرلين بوث الأمريكية وأديزونى ايلو الايطالية....

• ترجم لها العديد من القصص للإنجليزية وللفرنسية وللايطالية وللكردية..

ArabWorldBooks.com

•سافرت الى النمسا وسويسرا وألمانيا عبر وفود ثقافية وكتبت عن أسفارها ونشرت عنها فى الأهالى والعربى الكويتى والعربى الناصرى

• تزوجت من شاعر وناقد عراقى بعد قصة حب شهيرة وعاشت معه فى العراق فى نهاية الثمانينات..واستوحت تجربتها معه فى روايتها أشجار قليلة عند المنحنى الصادرة عن دار الهلال عام 2000

•كتبت الدراما التليفزيونية لقصتها القصيرة "نساء الصمت" وقامت بإنتاجها شركة صوت القاهرة للصوتيات والمرئيات وقامت يتمثيلها سمية الألفى مع محمود قابيل وعائشة الكيلانى وسلوى عثمان ونبيل هجرس..

•تكتب النقدى الفنى للاعمال التليفزيونية والسينمائية . كتبت عن افلام الموجة السينمائية الجديدة لمحمد خان وخيرى بشارة وداود عبد السيد ومجدى أحمد على وعن سينما البنات ورصدت المخرجات وكاتبات السيناريو الجدد بما يقدمنه من افلام جديدة ورؤى جديدة للحياة..مثل عزة شلبى وساندرا نشأت وهالة خليل ووسام سليمان ....

• صدر لها..المجموعات القصصية التالية..

1. "نصف امرأة" على نفقتها الخاصة عن دار الحرية عام 1984..

2. " العاشقون" مجموعة قصصية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 1989..فى سلسلة اشراقات أدبية .....

3. "إرتحالات اللؤلؤ" عن الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة عام 1996..سلسلة أصوات أدبية...ثم صدرت فى مكتبة الاسرة ..

16. المجموعة القصصية "ضلع أعوج" عن الهيئة المصرية للكتاب عام 1997 فى مختارات فصول ثم صدرت عن مكتبة الأسرة عام 2003

ومن الروايات صدر لها عن دار الهلال رواية "أشجار قليلة عند المنحنى" فى ديسمبر 2000..

Arab World Books.com

17. المجموعة القصصية "شاي القمر"عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 2005 مكتبة الأسرة...
18. صدر لها عن المجلس الأعلى للثقافة فى إبداعات التفرغ "حكايات المرأة الوحيدة" عام 2005...

وللأطفال صدر لنعمات البحيرى

1. "النار الطيبة" عن الهيئة المصرية للكتاب عام 1988..
2. و"الفتفوتة تغزو السماء " سيناريو وحوار عن سلسلة قطر الندى عن هيئة قصور الثقافة..
3. وعن دار المعارف صدر للكاتبة وصية الأزهار وبالونة سحر ورسومات نيرمين..
4. وعن الهيئة المصرية للكتاب " رحلة الأصدقاء الثلاثة"
5. نشرت قصص وسيناريوهات الأطفال متفرقة بدوريات مصرية وعربية مثل علاء الدين وقطر الندى و العربى الصغير وماجد...
6. شرت قصصها ومقالاتها فى أغلب المجلات والجرائد المصرية والعربية مثل الأهرام والحياة والشرق الاوسط والأخبار وأخبار الأدب والجمهورية والمساء ومجلة العربى الكويتى وأقلام العراقية ودبى الثقافية والصدى وكل الاسرة وحواء والهلال وغيرها ....

- حصلت على منحة قصر لافينى بسويسرا عن مؤسسة رولت فونداشن للفنانين ..أنهت فيها روايتها "أشجار قليلة عند المنحنى" التى صدرت عن دار الهلال فى عام 2000
- حصلت على منحة تفرغ لمدة ثلاث سنوات لكتابة ثلاث روايات وعدد من المجموعات القصصية منها حكايات

ArabWorldBooks.com

المـرأة الوحيـدة وارتحـالات اللؤلـؤ وأشـجار قليلـة عنـد المنحنى..

- ترجمت بعض قصصها إلى الانجليزية والفرنسـية والايطالية والكردية..
- تكتـب المقـال والنقـد السـينمائى والسـيناريو وأدب الرحلات
- حين داهمها السرطان قادتها بوصلتها شـديدة الحساسية والرهافة إلى ردعه وتجاوزه عن طريق الهـروب إلى الأمام وليس إلى الخلف، فاستنفرت سـلاحها الوحيـد "الإبداع" الفاتك بكل أعدائها وهم الظلـم والإحبـاط واليـأس والتخـاذل والخنـوع والاستسـلام، وتركـت العقـل ليمـارس حيلة من حيله النبيلة، يدفعها بهـا دفعـا إلـى خلـق حالـة من التوازن لكي تتقبل عن سـعة صـدر وأفـق، خبـرة الألـم المضافة إلى كم الخبـرات الإنسـانية التـي عاشـتها حتـى قبل أن تعرف الكتابة.. فراحت تـدون التجربـة فـى مراحلهـا القاسية كشكل من أشكال الدفاع..
- كتبت عن تجربتها أنهـا تـذكرت أن رحلـة حياتهـا ككاتبـة لا تـدعمها أيـة مؤسسـة اجتماعيـة أو ثقافيـة أو إعلاميـة لـم تختلـف كثيـرا عـن نفـس الرحلـة.. والبشـر والمواقـف والأحـداث علـى المسـتوى العـام والخـاص مثـل فيروسات أو بكتريا، مثـل أمـراض ..أمـراض واضـحة وأخـرى كامنة.. أمراض حميدة وأخرى خبيثة.. شـقاء يسـلمك إلـى شـقاء.. وصخرة سيزيف التى تثقـل كاهلـك لتظـل تشـقى لترفعها إلى أعلـى ومـا أن تشـعر بأنـك حقـا أدركـت حافـة الجبـل تسـقط الصـخرة، لتنـزل وتبـدأ مـن جديـد. ، وأن مـا حدث لها هو جزء من المؤامرة الكبرى على عقول وأجساد البشر فى مجتمعات العالم.. جـزء ممـا يحـدث فـى الـدول الفقيرة، ليكون نصيب الفرد فادح الضآلة ..

احتفـى بكتابـة نعمـات البحيـرى العديـد مـن النقـاد والشعراء والقصاصين والروائيين من المصريين والعرب...

ArabWorldBooks.com

قال عنها الناقد ابراهيم فتحى

برعت نعمات البحيرى في تصوير الواقع الديكتاتورى فى روايتها" أشجار قليلة عند المنحنى التى تمس كل الجروح وتتحدث عن صحراء الروح بكل أشكالها وتكتب بطريقة حية جديدة محاولة تصوير الشخصية الانسانية ليس فى مصر فقط بل وفى العالم أيضا. فهذه رواية لا يمكن ان يكتبها رجل لأنها تتحدث عن القهر المزدوج الواقع على الرجل والمرأة معا، وهى تبدع فى تصوير هذا القهر فهى رواية نسائية بالمعنى الجديد للتسمية تتحدث عن الجسد وعلاقة الحب ولكن علاقة المرأة بجسديتها علاقة بالعالم وبالقهر الانسانى وليس جسدا بيولوجيا فهو جسد اجتماعى حضارى من خلال لغة تصويرية جميلة.

قالت عنها الناقدة فريدة النقاش

من عالم المتخيل من هذا العالم الغائب الحاضر منه كذاكرة يبليها الزمن ويحييها الابداع تأتى نعمات البحيرى الى الكتابة باعتبارها ضد الفناء خلودا وتبنى عالم نصها متخيلة له نظامه أى نسقه وتحاول به حوارا مع هذا المتخيل فيصبح عملا أدبيا يشدنا إليه بخيوط من المتعة والمعرفة والأسى. والكتابة عندها هى انتصار على الموت لأنها تنطوى على شوق للإفصاح عن مبهم أو عن مجهول، والكتابة هى توقنا لأن نولد أبدا فى اللغة ونبقى....

قال عنها الناقد الكبير محمود عبد الوهاب..

فى روايتها أشجار قليلة عند المنحنى صورت مشاهد عبر الكثير من التفاصيل التى تجسد للقارىء معالم المكان، معالم اللون والرائحة والصوت والملمس ومساحات النور والظلال والظلام، معالم تسربت إليها المشاعر المختلفة عبر ساعات اليقظة وآليات الحلم وتحول مساحات الرماد إلى جدارية تلخص بؤس مجتمع ينوء كاهله باستبداد السلطة الحاكمة..

كتبت عنها الناقدة صافيناز كاظم

ArabWorldBooks.com

نعمات البحيري كاتبة في مرحلة نضجها الفني، قرأت لها الكثير من قصصها القصيرة منشورة هنا وهناك جذبني أسلوبها الوصفي التفصيلي الذي يتصاعد من الخفوت تدريجيا إلي الوهج. تمتلىء به قصصها بالمفارقات التي ترسم الابتسامة المتأملة للأسطر المقروءة. في روايتها "أشجار قليلة عند المنحنى" تتصرف بطلتها أشجان المصري بتلقائية المصرية التي لا تحسب حساب أجواء التربص والمراقبة والهيمنة التي يشيعها نظام تلك البلاد على شعبه فى سيطرة كابوسية لا فكاك منها وتلقائية الشابة المصرية نابعة من خلو ذهنها التام لتصورات الكيفية التي يمكن أن تسد بها النظم الديكتاتورية المنافذ على الناس في وطأة شديدة من كتم الأنفاس حتى تزهق الروح تماما .

نجحت نعمات البحيرى فى التصوير التفصيلي المحتج لرحلة معاناة أشجان المصري وهى تكتشف رويدا رويدا النفق الرهيب الذي أوقعت نفسها فيه، وبحثها المستميت للخروج والفرار. أشجان المصرى هو اسم البطلة لكنه واقعة فى دفتر أحوال هذه الرواية الانسانية النبيلة والمؤلمة فى صدقها وأمانتها " أشجار قليلة عند المنحنى".

وكتب عنها الناقد الفلسطيني فيصل دراج

فى روايتها_"أشجار قليلة عند المنحنى", تتحدث نعمات البحيري عن قمع متعدّد الطبقات, يلفّ البشر جميعاً ويتراءى شفافاً في مآل "المرأة", التي يسقط عليها عنف الذكورة وعنف متوارث له شكل البداهة. ربما يكون عمل_نعمات البحيري من الروايات العربية القليلة, التي نفذت الى جوهر النظام التسلّطي, حيث المتسلّط الكلّي, الذي تنوب عنه صوره الكثيرة, يلتهم كل ما خارجه, موزّعاً المجتمع الى فئتين: فئة أولى تحاكيه وتقلّده, كما لو كانت صورة من صوره, وفئة ترفض المحاكاة وتفترسها الصور وتنتهي الى الجحيم.

ArabWorldBooks.com

وفـى مقـال لـه بجريـدة الحيـاة اللندنيـة قـال الدكتور محمد الرميحى .....

اذا أراد القارىء أن يعرف كيف يعاني عربي مثلـه فـي مجتمـع قلـق تسـوده المخـاوف والآلام والإحباطـات فعليـه بقراءة رواية نعمات البحيري "أشجار قليلة عند المنحنى ". ففي هذه الروايـة ـ شـبه القصـيرة ـ مـا يغنـي عـن خطـب كثيرة وتفاصيل طويلة تضمها كتب التاريخ.

وقال عنها الدكتور حامد أبو احمد

اذا كان بعض النقاد العرب قـد رأى فـى قصـيدة نـازك الملائكة التفعيلية كسرا لعمود الفحولة فى الشعر العربى فأنى أرى أن نعمـات البحيـرى فـى ارتحـالات اللؤلـؤ أخـذت موقعا مهما فى قصيدة النثر العربية خاصـة اذا وضـعنا فـى الاعتبار ان هذا النـوع الشـعرى فـى أدبنـا مـازال الـى الآن يتخبط بين الرفض المطلق من جانب معارضيه وما اكثـرهم وبين النماذج الرديئة الشائهة من جانب أنصاره..

قال عنها الشاعر العراقى عواد ناصر

تحت عنوان "أشجار قليلة عند المنحنى روايـة عربيـة عن العراق لا تتملق أحدا.."

..هذه الرواية شهادة عربيـة خـارج مراسـيم السـيادة الرسـمية وبروتوكـولات العلاقـات الثنائيـة بـين البلـدين الشـقيقين وقد كتبتها نعمات البحيرى بحس فنـى راق لـم تنكفـىء بـه فـي دهـاليز المـوت والغبـاء وانعـدام اللغـة الطبيعية بين الكائنات بـل منحتـه ألقـا خاصـا مـن الصـدق أملى بدوره تعبيرية وجدانية تمتلـك القابليـة علـى موازنـة العسـف بالحميمية والقسـوة بالشـفاهية، الأمر الذي جعلنا نسـتمتع بروايـة جميلـة تـوفرت علـى عنصـري الإبـداع والتشويق رغم قسوة المادة الخام ووحشـة المكـان حيـث يفتقد أهم ما يحيله إلى ركن قابل للحياة: الحب

تقدم نعمات البحيرى درسـا عربيا فى صـورة التصـدى للأكذوبـة وفضـح تلـك الفاشـية العاديـة التـى تثقـل علـى صدور العراقيين ورقابهم وأصابعهم وتلك تيمـة رئيسـة مـن

تيمات الرواية ـ الشهادة التى قدمتها الروائية المخلصة لحقيقة نفسها ككاتبة قبل أية حقيقة أخرى وتضع الكاتب والقارىء العربى أمام مسئوليته ازاء ما يحدث لشعب شقيق..

كتب عنها الناقد يوسف أبو عوف

تؤكد نعمات البحيرى فى "ضلع أعوج "حضورها الساطع المكتمل والواعد فى نوع من حساسية الكتابة بدأت تتشكل وتتكون سماته وملامحه ومفردات ومضامينه وجمالياته فى السنوات القليلة الاخيرة تنهض بها المراة المصرية فى كبرياء وتواجه به كل ندوب الوهن والتآكل والتدنى لتخلف المجتمع الذكورى حيث تراتب القمع المراوغ الذى مازال يمارسه الرجل الشرقى ويستلب به حريات وانسانية واستقلالية المرأة..

وفى أطروحته النقدية "كتابة الحرية والتناغم" كتب **الدكتور مجدى توفيق ..**

قصص نعمات البحيرى تمتاز بالتدفق السردى البسيط الذى حررته الساردة من تقاليد القص القديمة وحررته كذلك من الاقتران برسالة واضحة محددة تنتظم حولها الأحداث ولكنه وفى الوقت نفسه يظل يحمل امكانية تأويلية مهمة تضرب به فى المستوى التحتى للتأويل، فى علاقة الراوية بالعالم حولها، موقفها من الجماعة، جروحها الذاتية وعيها بالوضع السياسى القائم وهى علاقة تتفتح دوما على موقف انسانى متكرر، تؤسس فيه الذات بهجتها وتآلفها فى عالمها المحدود ولا تسمح للعالم الواسع حولا أن يضر بعالمها الخاص وأن يفسد بهجته التخيلية..

كتب عنها د. مصطفى الضبع

كانت المجموعة القصصية "نصف امرأة" التى وضعتها نعمات البحيرى أمامنا عام 1984، ظننا حينها أنها ما قدمتها سوى لتشير إلى نساء مشوهات ، ولما لم نفهم الرسالة التى كان يكفى خمس سنوات لاستيعابها فكان " العاشقون" (1989) كاشفين وجها آخر للقضية ،

ومحاولين على مدى سبع سنوات أن يصححوا كثيرا من مفاهيم العالم ، ثم انتهى الأمر بإغرائنا بـ "ارتحالات اللؤلؤ" 1996 ، ولكن الإغراء لم يكن كافيا لعالم أشرف على خسارة وعيه فكانت صرخة " ضلع أعوج " محاولة أن تهمس فى أذهاننا بسؤالها الحاسم : من المسئول عن اعوجاج العالم ، ومن يتحمل مسئولية التقويم ؟ ولما كان على الكاتبة أن توسع من دائرة النداء متجاوزة قضايا يمكن أن تحيل إلى المحلية ، ولأن مقدرات عجزنا ألقت بنا فى العراء متدثرين بالهجير فقد سعت أشجان إلى أن تكشف عن رمزية أشجارها القليلة عند المنحى الخطر ، هاهنا وصلنا معها لدرجة من الوعى سمحت لنا أن نجلس مع شخصياتها متذوقين " شاى القمر" الذى استحقته موهبتها ، وأصبحنا جديرين به وقد امتلكنا قدرا من وعيها القادر على الإنجاز والكشف ، هكذا تتحرك نعمات البحيرى صانعة ثوابتها الراسخة عبر إنتاج نص متميز يليق بموهبتها ،و منجزة علاماتها الخاصة ، ومؤثرة فى كل من يعرف الطريق إلى روحها الأكثر جمالا .

قال عنها الشاعر شعبان يوسف

"قليلون هم الذين أخلصوا لفن القصة القصيرة مثلما أخلصت له الكاتبة المصرية نعمات البحيري.. تمزج في القصص الهم الخاص بالهم العام، في سبيكة واحدة.تبحث طوال الوقت عن ثغرات مفتوحة دوماً للمقاومة وانتاج المعنى النبيل في هذه الحياة، على رغم كل ما يطارد الكائن الانساني من كوارث لا ذنب له فيها، وكأن قوى غامضة استدرجته الى هذه الحياة كي تسحقه بلا رحمة ولا يجد الانسان إلا أن يقاوم ويقاوم."

وان الملمح الواضح في أغلب قصصها هو أن الحاضر ليس شرطاً أن يكون نتيجة مفروغاً من أمرها لحياة الماضي، فالماضي يمكن التمرد عليه، ويمكن الخروج من أسره، ويمكن كسر قيوده لصناعة حاضر ومستقبل أجمل وأرق وأكثر انسانية.

قال عنها القاص والروائى سيد الوكيل

لفتت نعمات البحيرى الانتباه بطاقة مدهشة من السرد الشعرى المفعم بروح أنثوية جديدة بتفهم عميق للواقع، ودرجة مدهشة من صفاء اللغة، وألق الروح الأنثوية الخلاقة.

الكتابة عندها بديلً عن الموت، عندما جعلت من سيرتها الذاتية أفقاً للسرد...نعمات لديها روح نضالية صلبة، تكتب وهى على أسرة المرض، وبين أروقة المستشفيات، وتحت مشارط الجراحين، وتهدى لنفسها مجموعتها الأخيرة (شاي القمر) لتنفض عن نفسها غبار الأيام والمرض. وشاي القمر .. مجموعة جديرة بالقراءة، لأن لا شيء يعوض المتعة التى يجدها القارئ فى لغتها الشعرية الجميلة، وعالمها الفضفاض، وهى تتكلم أكثر مما تكتب، وتبوح أكثر مما تؤلف، عن الحياة الصعبة، والأيام، والنساء اللاتى لا يعدمن سبيلاً للعيش، ويتحايلن على الحياة، ليعشنها بألف وجه وألف ذراع مادامت لهن أرواح حية محتشدة بالحياة وكلهن يشبهن نعمات البحيري، لا لشيء سوى لأنها عمدتهن بروحها، فتراهن نساء حقيقيات، منكسرات أحيانا ،وشرسات فى أحيان أخرى..

ArabWorldBooks.com